مجلة جامعة الملك سعود، م٨، الآداب (٢)، ص ص ٣١١ - ٣٤٩ (١٤١٦هـ / ١٩٩٦م).

نيران العرب في الجاهلية: لمحات أسطورية

عبدالرحمن بن إبراهيم الدباسي
أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب،
جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر بتاريخ ٢٧/١٠/١٤١٥هـ؛ وقبل للنشر بتاريخ ٢٨/١/١٤١٦هـ)

ملخص البحث. هذا البحث يدور في فلك البحوث التي تتلمس الجوانب الأسطورية عند العرب في جاهليتهم، ويجري مجراها، وهو محاولة لجمع ما تفرق في تراث العرب من طقوسهم وشعائرهم المتصلة بالنيران التي كانوا يوقدونها، ولها مضامين أو دلالات أسطورية أو خرافية، نابعة تارة من بيئاتهم وظروفهم أو هي مأخوذة — على الأرجح — ممن حولهم من الأمم التي اتصل بها العرب بشكل من أشكال الاتصال السياسي أو الاقتصادي أو غيرها. ولذا كان لزاما أن يبدأ هذا البحث بالحديث عن قنوات الاتصال بين العرب ومجاوريهم من أهل الحضارات المختلفة، ثم بالحديث عن النار عند أصحاب هذه الحضارات والثقافات، كالروم والفرس والمصريين والهنود وبني إسرائيل. ثم فُصِّل القول بعدُ في نيران العرب، كنار الاستمطار أو الاستسقاء، ونار المسافر، ونار التحالف أو التعاقد، ونار الغدر أو العار، ونار السعالى والغيلان، ونار الحرب، ونار القرى أو الضيفان، ونار الحُرتين. وقد قصدت إلى ألا أفصل القول في نيرانهم التي لا دلالة فيها على مثل هذه اللمحات الأسطورية الخرافية التي عقد البحث أصلاً للكشف عنها، بل أشرت إليها إشارات عابرة، ودللت على مظانها في المصادر المختلفة.

تمهيـــد

تتبعت تفسير قول الله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾[1] فوجدت إجماع المفسرين يكاد ينعقد على أن هذه النار في الآية الكريمة مجاز لا حقيقة،[2] ولكني حين رجعت إلى ما جاء في أشعار العرب وأخبارهم وآثارهم عن نار الحرب ظفرتُ منها بأشعار وأخبار نادرة دالة على أن العرب كانت توقد نارًا إذا ما أرادت حربا وعزمت على ذلك، وكان هذا دافعًا لي كي أتتبع ما جاء عن النار عندهم، وخصوصًا اللمحات الأسطورية والخرافية في علاقتهم بها. وقد حاولت في هذا البحث أن آخذ نفسي بتناول هذا الموضوع ودراسته واستقصاء مادته قدر الإمكان.

العرب ومن حولهم وجذور التأثر

في تقديري أن أساطير العرب وخرافاتهم — وخاصة ما يتصل بالنار منها — تعود إلى تأثيرات حضارية نتجت عن طريق اتصال العرب بمن حولهم من الأمم المحيطة بجزيرتهم، من فرس وروم وهنود ومصريين وأحباش، ممن كان يتصل العرب بهم في شكل من أشكال الاتصال خارج بلاد العرب أو داخلها من الوافدين والمقيمين من أبناء هذه الأمم بين ظهراني العرب في بيئاتهم المختلفة. قال ابن حبيب، في معرض حديثه عن أسواق العرب: «المشقَّر بهجر، تقوم سوقها أول يوم من جمادى الآخرة إلى آخر الشهر، فتوافى بها فارس، يقطعون البحر إليها ببياعاتهم... ثم سوق دبا، وهي إحدى فرضتي العرب، يأتيها تجار السند

---

(١) سورة المائدة، الآية ٦٤.

(٢) انظر: محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تحقيق محمود وأحمد محمد شاكر (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٧م)، جـ١٠، ص٤٥٨؛ ومحمد بن أحمد القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن* (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م)، جـ٦، ص٢٤٠؛ وأبا عبيدة معمر بن المثنى، *مجاز القرآن*، بعناية محمد فؤاد سزكين (القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت.)، جـ١، ص١٧١؛ والحافظ عماد الدين بن كثير، *تفسير القرآن العظيم* (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، م٢، جـ٢، ص ص ٧٨، ٧٩.

والهند والصين وأهل المشرق والمغرب.»[٣] وقصة إيلاف قريش معروفة مشتهرة، وكان هاشم بن عبد مناف هو صاحب الإيلاف، وهو أول من سن رحلتي قريش، ترحل إحداهما في الشتاء إلى اليمن والحبشة، وترحل الأخرى في الصيف إلى الشام وغزة، وربما بلغ هاشم أنقرة، فيدخل على قيصر فيكرمه ويحبوه. وقد أخذ هاشم لقريش عهدًا وموثقا من الروم وغسان بالشام، وأخذ لهم عبد شمس مثلهما من النجاشي بالحبشة، وأخذ لهم نوفل مثل ذلك من الأكاسرة بالعراق.[٤] وقال الثعالبي في شأن قريش: «فضربوا في البلاد إلى قيصر بالروم، والنجاشي بالحبشة، والمقوقس بمصر.»[٥] وذكر أحمد كمال باشا في مقالة له عن الأصنام العربية المصرية الأصل، ما ملخصه: «إذا نظرنا في أسماء هذه الأصنام رأينا أكثرها مأخوذًا عن المعبودات المصرية، ولقد كان بين العرب وقدماء المصريين اتصال قديم، وعلاقات تجارية، فمن عهد الدولة الرابعة كان المصريون يذهبون بالبضائع إلى الجهات الجنوبية من بلاد العرب، فيحتمل أنهم أخذوا أصنامهم معهم فاقتدى العرب بهم في عبادتهم، وقد نص على ذلك المصريون أنفسهم في بعض كتاباتهم.»[٦] وكان النضر بن

---

(٣) محمد بن حبيب، *المحبر*، تصحيح إيلزه ليختن (حيدر آباد: مطبعة جمعية دائرة المعارف، ١٣٦١هـ/١٩٤٢م)، ص٢٦٥.

(٤) انظر في أمر الإيلاف وعلاقاتهم التجارية: محمد بن حبيب، *المنمق* (حيدر آباد: مطبعة جمعية دائرة المعارف، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م)، ص ص ٢٥٢، ٢٥٣؛ ابن حبيب، *المحبر*، ص ص ١٦٢ - ١٦٤، ٢٦٣ - ٢٦٧؛ وأبا محمد عبدالملك بن هشام، *السيرة النبوية*، تحقيق مصطفى السقا وآخرين (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.)، جـ١، ص ص ٥٧، ٥٨، ١٤٥؛ وأبا هلال العسكري، *الأوائل*، تحقيق وليد قصاب ومحمد المصري، ط٢ (الرياض: دار العلوم، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، جـ١، ص٩٠.

(٥) أبو منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي، *ثمار القلوب*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ص١١.

(٦) أحمد كمال باشا، «أصنام العرب وأصلها المصري،» *مجلة المقتطف*، م٢٣، جـ٧ (١٨٩٩م)، ص ص ٥٠٥ - ٥١٠؛ وشفيق المعلوف، *ديوان عبقر*، ط٣ (سان باولو: دار الطباعة والنشر العربية، ١٩٤٩م)، ص٣٧.

الحارث القرشي يرحل إلى بلاد فارس، فيأخذ عنهم أخبار ملوكهم كرستم وإسفنديار،(٧) ومكاتبات الرسول ﷺ إلى ملوك فارس والروم ومصر والحبشة دالة على شيء من هذا الاتصال،(٨) وقد سمى ابن حبيب أبناء اليهوديات والنصرانيات والحبشيات والسنديات من عرب الجاهلية والإسلام.(٩) وقال الهمداني، عن معدن شمام بأرض اليمامة: «وكان به ألوف المجوس الذين يعملون المعدن، وكان به بيتا نار يعبدان.»(١٠) ورحلات الشعراء الجاهليين إلى بلاد الفرس والروم مرورًا بالمناذرة والغساسنة مشهورة معلومة، ومن هؤلاء الشعراء امرؤ القيس والنابغة الذبياني والأعشى الكبير وطرفة بن العبد وحسان بن ثابت وغيرهم، وأشعارهم ناطقة بذلك. وفي أخبار الأعشى: «وكان يفد على ملوك فارس، ولذلك كثرت الفارسية في شعره.»(١١) وقد تأثر العرب باليهود والنصارى، واعتنق بعضهم إحدى هاتين الديانتين، وهذا أمر شائع لسنا بحاجة إلى الوقوف عنده لظهوره وكثرة الأدلة عليه. ويكفي أن نطالع مجاميع الشعر وكتب طبقات الشعراء لنعثر على غير قليل من شعراء النصرانية وشعراء اليهود بين شعراء العربية، وقد جعل ابن سلام الجمحي طبقة خاصة لشعراء اليهود،(١٢) وفي

---

(٧) الطبري، جامع *البيان*، جـ١٣، ص ص ٥٠٣، ٥٠٤؛ القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، جـ٧، ص٣٩٧؛ جـ١٠، ص٩٥؛ وابن أبي أصيبعة، *عيون الأنباء في طبقات الأطباء* (بيروت: دار الفكر، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م)، جـ١، ص ص ١٣، ١٩؛ وعبدالرحمن بن عبدالله السهيلي، *الروض الأُنُف في شرح السيرة النبوية*، تحقيق عبدالرحمن الوكيل (القاهرة: دار الكتب الحديثة، مطابع دار النصر، د.ت.)، جـ٣، ص ص ٣١٦، ٣١٧.

(٨) انظر: محمد حميدالله، *مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة*، ط٥ (بيروت: دار النفائس، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص ص ٩٩ ـ ١٤٤.

(٩) ابن حبيب، *المحبر*، ص ص ٣٠٦، ٣٠٧؛ ابن حبيب، *المنمق*، ص ص ٥٠٣ ـ ٥٠٨.

(١٠) الحسن بن أحمد الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، تحقيق محمد بن علي الأكوع (الرياض: دار اليمامة، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ص٢٩٤.

(١١) أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، *الشعر والشعراء*، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، جـ١، ص٢٥٨.

(١٢) محمد بن سلام الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، تحقيق محمود محمد شاكر (القاهرة: مطبعة المدني، د.ت.)، جـ١، ص ص ٢٧٩ ـ ٢٩٦.

الجزيرة العربية كانت كنائس وبيع،[١٣] وروي أن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — أخرج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، إلا أنهم لم يخرجوا من نجران ولا اليمامة والبحرين.[١٤] يقول الشهرستاني: «ومن العرب من كان يميل إلى اليهودية ومنهم من كان يميل إلى النصرانية، ومنهم من كان يصبو إلى الصابئة ويعتقد في الأنواء اعتقاد المنجمين في السيارات، حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء، ويقول مطرنا بنوء كذا، ومنهم من كان يصبو إلى الملائكة فيعبدهم، بل كانوا يعبدون الجن.»[١٥] ومن اللافت للنظر أن بعض العرب قد اعتنقوا المجوسية لاحتكاكهم بالفرس واتصالهم بهم، وقد ذكر صاعد الأندلسي أن ابن قتيبة قال: «كانت النصرانية في ربيعة وبعض قضاعة، وكانت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة، وكانت المجوسية في تميم، وكانت الزندقة في قريش.»[١٦] وعند ابن قتيبة: «كانت المجوسية في تميم، منهم زرارة بن عدي التميمي وابنه حاجب بن زرارة، ومنهم الأقرع بن حابس، وكان مجوسيًّا، وأبوسود — جد وكيع بن حسان — كان مجوسيًّا.»[١٧] وعند ابن قتيبة أيضًا: «كان حاجب بن زرارة هو الذي أتى كسرى في جدب أصابهم فسأله أن يأذن له ولقومه أن يصيروا إلى ناحية من نواحي بلده، فأذن لهم.»[١٨] وحين جاء ابن سعيد إلى ذكر بني دارم من تميم قال: «وفي هذا البيت مركز شرف بني دارم، وكانوا أهل مجوسية يعبدون النار من بين

---

(١٣) انظر: محمد بن سعد، *الطبقات الكبرى* (بيروت: دار صادر ودار بيروت، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م)، جـ٥، ص٥٥٢؛ الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ص٢٩٧.

(١٤) أبوعبيد البكري، *معجم ما استعجم*، تحقيق مصطفى السقا (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٩م)، جـ١، ص١٢.

(١٥) أبوالفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، *الملل والنحل*، تحقيق محمد سيد كيلاني (بيروت: دار المعرفة، د.ت.)، جـ٢، ص٢٣٨.

(١٦) أبوالقاسم صاعد بن أحمد الأندلسي، *طبقات الأمم*، نشره لويس شيخو (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩١٢م)، ص٥٧.

(١٧) أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، *المعارف*، تحقيق ثروت عكاشة، ط٤ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ص٦٢١.

(١٨) ابن قتيبة، *المعارف*، ص ٦٠٨.

العرب، لمخالطتهم لملوك الفرس واتباع مراضيهم.»[١٩] وكانت المجوسية معروفة مشتهرة في اليمن وعُمان والبحرين.[٢٠] وهذا كله يؤكد أن التأثير الفارسي المجوسي في بعض بيئات الجزيرة العربية وبعض قبائلها عائد إلى الاحتكاك بهم عن طريق الجوار أو عن طريق بسط النفوذ السياسي للفرس في بعض أنحاء الجزيرة أو عن طريق الرقيق من الفرس المجوس الذين انتشروا في المجتمع العربي. وأشارت إليه بعض النصوص كما قدمنا، وقد جاء في أشعار بعض شعراء العرب إشارات إلى بيوت النار عند المجوس أو عند الرهبان، من ذلك قول التوءم اليشكري:

كَنَارِ مَجُوْسَ تَسْتَعِرُ اسْتِعَارَا[٢١]

وقول امرىء القيس:

مَشَىٰ الهِرْبِذَى فِي دَفِّهِ ثُمّ فَرْفَرَا

والهربذ بالكسر، واحد الهرابذة، وهم قومة بيت النار التي للهند، وقيل: الهرابذة حكام المجوس.[٢٢] وعند جواد علي: «ولفظة (الهربذ) من الألفاظ المعربة عن الفارسية، من أصل (هـور)، (بت) بمعنى رئيس خدام النار، والموكل على خدمة النار في المعبد.»[٢٣] وقول امرىء القيس أيضًا:

---

(١٩) ابن سعيد الأندلسي، *نشوة الطرب*، تحقيق نصرت عبدالرحمن (عمّان: مكتبة الأقصى، ١٩٨٢م)، جـ١، ص٤٤٩؛ وانظر: محمود شكري الألوسي، *بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب*، شرح وتصحيح محمد بهجة الأثري، ط٣ (القاهرة: مطابع دار الكتاب العربي، د.ت.)، جـ٢، ص٢٣٣.

(٢٠) انظر: جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب*، ط١ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨ - ١٩٧٣م)، جـ٦، ص٦٩٣.

(٢١) *ديوان امرىء القيس*، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، ط٤ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ص١٤٧؛ وابن رشيق القيرواني، *العمدة في صناعة الشعر ونقده*، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٥ (بيروت: دار الجيل، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، جـ١، ص٢٠٢؛ جـ٢، ص٩١.

(٢٢) انظر: أبا الفضل جمال الدين بن منظور، *لسان العرب*(بيروت: دار صادر، د.ت.)، (هربذ)، والشطر في *ديوان امرىء القيس*، ص٦٧ برواية مختلفة.

(٢٣) جواد علي، *المفصل*، جـ٦، ص٦٩٥.

نظـرتُ إلـيهـا والـنُّجُــومُ كأنهـا مصابيـحُ رهبـانٍ تُشَبُّ لقُفَّـالِ[٢٤]

وقول حسان بن مرة:

تَسَعَّــر نـارُهــا وَهَجَــاً وجــاءت إذا خمـدت كنيـرانِ الفِصَــاحِ[٢٥]

وقول عُمارة بن عقيل:

مــا زال عصـيانـنــا لله يسلمنــا حتـى دُفـعنــا إلى يحيى ودينـــار

إلى عُلَيْجَــيْنِ لـم تُقْطَــع ثِمارُهــا قد طَالَ ما سَجَدَا للشمسِ والنار[٢٦]

وقد ضرب المثل بنار المجوس لمن صحب قوما فلم يرعوا حق صحبته لهم وخدمته إياهم، فقال الشاعر:

عَمْـرى لَقَـدْ جَرَّبْـتُـكُـمْ فَوَجَـدْتُكمْ نَارَ المَجُـوسْ[٢٧]

والمجوس كانوا يعظمون النور والضياء في مقابل الظلمة، ولذا عظموا الشمس والقمر كما عظمـوا النـار، وقـد سمت العـرب عبد شمس، وهو غير قليل في أسمائهم،[٢٨] وسموا عبد قمر وعبد قمير،[٢٩] وعبدوا الشمس والقمر، وكانوا يسجدون لهما تعظيما، قال تعالى:

---

(٢٤) امرؤ القيس، *ديوانه*، ص ٣١.

(٢٥) حسن السندوبي، *أخبار المراقسة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام*، ط٣ (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م)، ص٢٥١. ونيران الفِصَاح: هي النيران التي كانت توقدها نصارى العرب في أعياد الفِصح.

(٢٦) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، *البيان والتبيين*، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٤ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٧٥م)، جـ٣، ص ص ٢٢٨، ٢٢٩؛ ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، جـ١، ص٤٦٤.

(٢٧) الثعالبي، *ثمار القلوب*، ص ٥٧٨.

(٢٨) انظر: ابن قتيبة، *المعارف*، ص ص ٧٢، ١٢٦؛ ابن حبيب، *المحبر*، ص ص ٨٧، ٨٨، ١٦٢، ١٦٣، ٣٦٤؛ وهشام بن محمد الكلبي، *جمهرة النسب*، تحقيق ناجي حسن، ط١ (بيروت: عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ص ص ٢٣، ١٤٨، ٢١٠، ٢٢٩؛ وأبا محمد علي بن حزم الأندلسي، *جمهرة أنساب العرب*، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٥ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ص٥٩٤.

(٢٩) حسين الحاج حسن، *الأسطورة عند العرب في الجاهلية*، ط١ (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ص١٢٩.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ .(٣٠) وقد خشي الرسول ﷺ أن يتشبه المسلمون بالمشركين فَتَعْزَى صلاتهم في أوقات إلى تعظيم الشمس كما يعظمها الجاهليون، فنهى عن الصلاة عند طلوع الشمس.(٣١) وجاء في القرآن الكريم في معرض الحديث عن بلقيس ملكة سبأ، قوله تعالى: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .(٣٢) ولعل العرب قد جاءهم تعظيم الشمس والقمر من الآشوريين او البابليين آو اليونانيين أو الرومانيين أو الهنود أو النبطيين.(٣٣)

النار عند بعض الأمم

تعظيم النار وتقديسها عند الأمم له من الشيوع والانتشار بحيث لا يمكن استقصاؤه ولا الإحاطة به، فقد تحدثت المصادر وكتب التاريخ والحضارات عن هذه الظاهرة في الأمم التي سُجلت أخبارها، ورُصدت معالم تطورها وحوادث تاريخها، وأحيط ببعض مظاهر حضارتها. وما الظن بالأمم التي لم تحظ بمثل هذا الرصد ولا بمثل هذه الإحاطة في القديم والحديث من تاريخ البشرية، قال الجاحظ: «ما زال الناس كافة والأمم قاطبة — حتى جاء الله بالحق — مولعين بتعظيم النار، حتى ظن كثير من الناس، لإفراطهم أنهم يعبدونها. ويزعم أهل الكتاب أن الله أوصاهم بها، فقال: لا تطفئوا النار من بيوتي؛ ولذلك لا تجد الكنائس والبيع وبيوت العبادات تخلو من نار أبدا، ليلاً أو نهارًا، فأما المجوس فإنها لم ترض

(٣٠) سورة فصلت، الآية ٣٧.

(٣١) حسن، *الأسطورة*، ص ١٢٨.

(٣٢) سورة النمل، الآية ٢٤.

(٣٣) انظر تفاصيل هذا التعلق بالشمس والقمر عند هذه الأمم، ومدى تأثر العرب بهم في: الشهرستاني، *الملل والنحل*، جـ٢، ص٢٥٨؛ *والموسوعة العربية الميسرة*، إشراف محمد شفيق غربال (القاهرة: دار الشعب، ومؤسسة فرانكلين، ١٩٦٥م)، (نار)؛ ومحمد عبدالمعيد خان، *الأساطير العربية قبل الإسلام* (القاهرة: نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة اللجنة، ١٩٣٧م)، ص ص ١١٠، ١١٨؛ وعمارة نجيب، *الإنسان في ظل الأديان* (القاهرة: المكتبة التوفيقية، ١٩٧٦، ١٩٧٧م)، ص١٨٢؛ وعباس محمود العقاد، *الله ـ كتاب في نشأة العقيدة*، ط٥ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ص ص ٧٦، ٩١، ١٠٣.

بمصابيح أهل الكتاب حتى اتخذت البيوت للنيران، وأقامت عليها السدنة، ووقفت عليها الغلات الكثيرة، وسجدت لها على جهة التعبد والمحبة وإيجاب الشكر على النعمة.»[٣٤] وعبادة النار كانت أقدم مما يتصور، فقد روي أن هذه العبادة كانت منذ عهد قابيل بن آدم، وذلك أنه لما قتل أخاه هابيل هرب من أبيه فجاءه إبليس، وقال له: إنما قبل قربان هابيل وأكلته النار، لأنه كان يخدمها ويعبدها، فانصب أنت أيضا نارًا لتكون لك ولعقبك، فبنى بيت نار، فهو أول من نصب النار وعبدها.[٣٥] قال الله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٣٦] لكن الذي نرجحه هو أن تعظيم الإنسان للنار ربما يعود — قبل كل شيء — إلى الرغبة أو الرهبة أو كلتيهما، فللإنسان في النار مصالح ومنافع ربما كانت دافعًا لتعظيمه وتقديسه إياها، وللنار في روعه خوف ورهبة وعجز عن المواجهة ربما كانت نبعًا ثرًا لشعوره بعظمتها وقداستها.

وقد عد فلاسفة اليونان النار أحد العناصر الأربعة،[٣٧] وعند هيرقليطس — وهو من أعظم فلاسفة اليونان — أن الدنيا لم يخلقها أحد من الآلهة ولا من الناس، ولكنها كانت منذ الأزل نارًا خالدة، تتقد بحساب وتنطفىء بحساب، فالنار هي أصل العناصر، وهي المصدر الأول لجميع الكائنات.[٣٨] وفي أثينا القديمة، كما في روما، كانت ديانة العائلة ترتبط بالموقد العائلي، وهو رمز تعبيري لشعور الإنسان بأنه امتداد لأسلافه وسابقيه، ولاحترام هذا الامتداد كانت توقد نار دائمة في موقد داخل منزل العائلة، وتغذى باستمرار، وفق عقيدة تنص على أن استمرار نسل العائلة إنما هو بالحفاظ على جذوة تلك النار، وكانت

(٣٤) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، *الحيوان*، تحقيق عبدالسلام هارون (القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٥هـ/١٩٦٦م)، جـ٥، ص١٢٠؛ وانظر: الثعالبي، *ثمار القلوب*، ص ص ٥٧٧، ٥٧٨.

(٣٥) شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، ط٢ (القاهرة: دار الكتب القاهرية، ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م)، جـ١، ص١٠٥؛ الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ٢، ص٢٣٤.

(٣٦) سورة المائدة، الآية ٢٧.

(٣٧) *الموسوعة العربية الميسرة*، (نار).

(٣٨) العقاد، *كتاب (الله)*، ص ١٢٨.

نار الموقد ترتبط بالعناية الإلهية، وهي ظاهرة مقدسة.[٣٩] وفي اليونان كانت النار المقدسة تربط بين المستعمرة وبين العاصمة اليونانية التي أخذت منها الشعلة،[٤٠] ولعل هذا هو الأصل في الشعلة الأولمبية، ولليونان العيد الأولمبي في إليس، وكانت تقام في أعيادهم مباريات رياضية بين الدول المختلفة، ولكنها كانت في أساسها أيامًا مقدسة.[٤١]

وفي روما انتشرت عبادة آلهة الدفء، وتعد قصة برومثيوس الذي وهب النار والغنى للجنس البشري من القصص الشهيرة،[٤٢] و(فستا) عند الرومان هي إلهة الموقد وناره المقدسة،[٤٣] ومكان العبادة عندهم يمكن أن يكون هو موقد الدار، أو موقد البلدية القائم في قاعة المدينة العامة.[٤٤]

ولعل أظهر الطوائف والأمم تعظيما للنار هم المجوس، وقد علل الشهرستاني تعظيم المجوس ومن لف لفهم للنار بقوله: «وهؤلاء يتعصبون للنار من حيث إنها علوية نورانية لطيفة لا وجود إلا بها ولا بقاء إلا بإمدادها... وتوجهوا في عبادتهم إلى النيران تعظيمًا لها،»[٤٥] ثم ذكر بيوت النيران للمجوس في بلاد فارس والروم والهند والصين.[٤٦] أما النويري، فقال في هذا الموضوع: «ومنفعة النار تختص بالإنسان دون سائر الحيوان، فلا يحتاج إليها شيء سواه، وليس به عنها غنى في حال من الأحوال، ولهذا عظمتها المجوس، وقالوا: إذا أفردتنا بنفعها فنفردها بتعظيمها.»[٤٧]

---

(٣٩) انظر: يوسف الحوراني، *الإنسان والحضارة*، ط٢ (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٧٣م)، جـ٦، ص ص ٤٦، ٤٧.

(٤٠) *الموسوعة العربية الميسرة*، (نار)؛ العقاد، *كتاب (الله)*، ص١١٠.

(٤١) ول ديورانت، *قصة الحضارة*، ترجمة محمد بدران، ط٢ (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٩م)، جـ٦، ص٣٦٤.

(٤٢) العقاد، *كتاب (الله)*، ص ١١٠.

(٤٣) ديورانت، *قصة الحضارة*، جـ٦، ص ٣٣٧.

(٤٤) ديورانت، *قصة الحضارة*، جـ٦، ص ٣٤٩.

(٤٥) الشهرستاني، *الملل والنحل*، جـ١، ص ٢٥٣.

(٤٦) الشهرستاني، *الملل والنحل*، جـ١، ص ٢٥٤.

(٤٧) النويري، *نهاية الأرب*، جـ١، ص ١٠٤.

ويرى الجاحظ أن زرادشت هو الذي عظم النار وأمر بإحيائها، ونهى عن إطفائها، ونهى الحَيَّض عن مسها والدنو منها، وزعم أن العقاب في الآخرة إنما هو بالبرد والزمهرير.(٤٨) وحرم زرادشت عبادة الأصنام والأوثان، وقدس النار على أنها هي أصفى العناصر المخلوقة وأطهرها.(٤٩) وكان ماني يفرط في تمجيد النار وتعظيم شأنها، ويؤهلها للتقديس والتسبيح؛ كل ذلك لنورها وإضاءتها في المكان بين الفلكيات والعنصريات، وهذا المذهب قد كان قديما للفرس ولم يبتدعه ماني(٥٠) بل إن كلمة مجوس من الكلمات المعربة، عربت عن لفظة (مغوس) maghos الفارسية التي تعني عابد النار.(٥١)

أما الهنود، فإن للنار أهمية كبرى عند كثير منهم، ولبثت النار، وهي الإله (أجنى)، حينا من الدهر أهم آلهة الفيدا.(٥٢) إذ كان هذا الإله هو الشعلة المقدسة التي ترفع القربان إلى السماء، وكان هو البرق الذي يثب في أرجاء الفضاء، وكان للعالم حياته النارية وروحه المشتعلة.(٥٣) وعبدت طائفة من الهنود النار، وزعموا أنها أعظم العناصر جرما، وأوسعها خيرا، وأعلاها مكانا، وأشرفها جوهرا، وأنورها ضياء وإشراقا، وإنما عبادتهم لها أن يحفروا أخدودا مربعا في الأرض، ويؤججوا النار فيه، ثم لا يدعوا طعامًا لذيذًا ولا شرابًا لطيفًا ولا ثوبًا فاخرًا ولا عطرًا فائحًا ولا جوهرًا نقيًّا إلا طرحوه فيها، تقربًا إليها، وتبركًا بها، وحرموا إلقاء النفوس فيها وإحراق الأبدان بها، خلافًا لجماعة أخرى من زهاد الهند، ومنهم زهاد وعباد يجلسون حول النار صائمين.(٥٤) وقد كان مذهب إحراق الموتى بالنار، وما زال حتى

---

(٤٨) الجاحظ، *الحيوان*، جـ٥، ص ٦٦.

(٤٩) العقاد، *كتاب (الله)*، ص ٩٦.

(٥٠) أبوالفرج بن العبري، *تاريخ مختصر الدول*، تصحيح أنطون اليسوعي (بيروت: دار الرائد اللبناني، ١٤٠٣/١٩٨٣م)، ص١٣٠.

(٥١) علي، *المفصل*، جـ٦، ص ٦٩٢.

(٥٢) الفيدا: اسم يطلقه البرهميون على مجموعة كتب دينية يعتقدون أنها وحي من الإله براهما، وقد جمعها حكيم من حكمائهم، اشتهر باسم فيدا (انظر: نجيب، *الإنسان في ظل الأديان*، ص١٨٢).

(٥٣) ديورانت، *قصة الحضارة*، جـ٣، م١، ص ص ٣٢، ٣٤.

(٥٤) الشهرستاني، *الملل والنحل*، جـ٢، ص ص ٢٦١، ٢٦٢.

الآن، عند بعض الشعوب امتدادًا للمذهب القديم، الذي كان يتقرب إلى النار بالنفس والولد، كما يحدث عند الهنود والبوذيين.(٥٥)

وعظمت بنو إسرائيل النار، وفي كتب التفسير ما يدل على هذا التعظيم، كما في تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾.(٥٦) قال أبو السعود في تفسيرها: «كما كان عليه أمر بني إسرائيل، حيث كان يقرب القربان، فيقوم النبي فيدعو، فتنزل نار من السماء فتأكله، أي تحيله إلى طبعها بالإحراق، وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم.»(٥٧) ويقول الجاحظ عنهم: «كانت النار معظمة عند بني إسرائيل، حيث جعلوها تأكل القربان، وتدل على إخلاص المتقرب وفساد نية المدغل، وحيث قال الله لهم: لا تطفئوا النار من بيوتي، ولذلك لا تجد الكنائس والبيع أبدًا إلا وفيها المصابيح تزهر ليلاً ونهارًا، حتى نسخ الإسلام ذلك وأمرنا بإطفاء النيران إلا بقدر الحاجة.»(٥٨)

النار عند العرب

نار الاستمطار أو الاستسقاء

ولعلها من أهم نيرانهم وأكثرها اتصالاً بما هو خرافي وأسطوري في حياتهم، وأشدها دلالة على تأثرهم بمن حولهم من الأمم — فيما نرجحه — إذ كانوا يعقدون السَّلَع والعُشَر(٥٩) في أذناب البقر وبين عراقيبها، ويضرمون النيران فيها، ويصعدونها على تلك

---

(٥٥) انظر: الشهرستاني، *الملل والنحل*، جـ٢، ص٢٦٢، وذيله، جـ٢، ص١٤؛ حسن، *الأسطورة*، ص١٣٠.

(٥٦) سورة آل عمران، الآية ١٨٣.

(٥٧) أبو السعود بن محمد العمادي، *تفسيره*، تحقيق عبدالقادر أحمد عطا (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، مطبعة السعادة، د.ت.)، جـ١، ص٦١٤.

(٥٨) الجاحظ، *الحيوان*، جـ٥، ص١٢٠، وانظر: أبا القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني، *محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء* (بيروت: مكتبة دار الحياة، ١٣٨١هـ/١٩٦١م)، جـ١، ص١٥٣؛ جـ٤، ص ص ٦٢٣، ٦٢٤؛ ابن العبري، *تاريخ مختصر الدول*، ص٨٧.

(٥٩) السَّلع: نبات، وقيل شجر مر. والعُشَر: شجر له صمغ، وهو من كبار الشجر، عريض الورق، ينبت صعدا في السماء (*اللسان*: سلع، وعشر).

الحالة في جبل ويضجون بالدعاء، يستسقون بذلك، في حال الجدب وامتناع المطر، تفاؤلا للبرق بالنار، وكانوا يسوقونها نحو المغرب من دون الجهات. [٦٠] وفي ذلك يقول أمية بن أبي الصلت:

سَنَــةٌ أزْمَــةٌ تخيَّلُ بالـنَّـا ... س ترى للعِضَاهِ فيها صَرِيرا
لا على كوكبٍ تنوء ولا ريحِ جنوب ولا ترى طُخْـرُورا
ويسوقون باقر السهل للطود مهازيل خشية أن تبورا
عاقدين النِّيران في شُكُر الأذناب منها لكي تَهِيج البحورا
سَلَعٌ ما ومثله عُشَرٌ ما ... عائل ما وعالت البيقورا
فاشتوت كلها فهاج عليهم ... ثم هاجت إلى صَبِير صَبِيرا
فرآها الإله تُرْشِمُ بالقطر ... وأمسى جَنَابُهم ممطورا
فسقاها نَشَاصُه واكفَ الغَيث منه إذا رادعوه الكبيرا. [٦١]

وقد رد الورل الطائي على أمية بقوله:

لا درَّ درُّ رجالٍ خاب سعيهُم ... يَسْتَمْطِرون لدى الأزمات بالعُشَرِ
أجاعلٌ أنت بَيْقُورًا مُسَلَّعَةً ... ذَرِيْعَةً لك بين الله والمطر [٦٢]

وقد خص صاحب *عيار الشعر* الثيران بذلك، فقال: «وكعقدهم السَّلَعَ والعُشَرَ في أذناب

(٦٠) انظر في هذه النار: الجاحظ، *الحيوان*، جـ٤، ص٤٦٦؛ العسكري، *الأوائل*، جـ١، ص٦٣؛ الثعالبي، *ثمار القلوب*، ص ص ٥٧٩، ٥٨٠؛ الأندلسي، *نشوة الطرب*، جـ٢، ص٧٨٦؛ النويري، *نهاية الأرب*، جـ١، ص ص ١٠٩، ١١٠؛ الأصبهاني، *محاضرات الأدباء*، جـ٣، ص٦٢٣؛ ابن منظور، *اللسان*: (سلع وعشر)؛ الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ٢، ص٣٠١.

(٦١) الأبيات في الجاحظ، *الحيوان*، جـ٤، ص ص ٤٦٦، ٤٦٧؛ وفي *ديوان أمية بن أبي الصلت*، جمع بشير يموت (بيروت: المكتبة الأهلية، ١٩٣٤م)، ص ص ٣٥، ٣٦؛ وابن طباطبا العلوي، *عيار الشعر*، تحقيق عبدالعزيز المانع (الرياض: دار العلوم، ١٩٨٥م)، ص٦٠. والعِضَاه: كل شجر له شوك، أو هو أعظم الشجر. والطُّخرور: السحاب المتفرق. والشُّكُرُ: جمع شكير، وهو الشعر القصير بين الشعر الطويل. والصَّبير: السحاب يثبت يومًا وليلة ولا يبرح. وتُرْشِم: من أرشمت الأرض، أي بدا نبتها. والنَّشاص: بالفتح السحاب المرتفع. والغيث والواكف: المطر الهاطل.

(٦٢) الجاحظ، *الحيوان*، جـ٤، ص٤٦٨؛ ابن طباطبا، *عيار الشعر*، ص٦١؛ ابن منظور، *اللسان*، (بقر) و(سلع). واسم الشاعر في مصادر: الوداك، وفي أخرى: الوديك.

الثيران،(٦٣) ولعله نظر إلى ما يعتقده العرب في الثور خاصة من أنه تركبه الجن والشياطين، أو تركب قرنيه، ولذا كانوا يضربونه إذا امتنع البقر عن شرب الماء، وكأنهم يطردون الجن، والشواهد على هذا كثيرة في أشعارهم وأخبارهم،(٦٤) ومن ذلك قول الأعشى:

فإني ومــا كلفتــمــوني وربِّكُمْ ... لأعْلمُ من أمْسَى أعَـقَّ وأحْـوبَا
لَكَـالثَّور والجنِّي يُضْـرب ظَهْـرُهُ ... وَمَـا ذَنْبُهُ أنْ عَافَتِ الماءَ مَشْربَا
وَمَـا ذَنْبُـهُ أنَّ عَافَـتِ الماءَ باقِـرٌ ... وَمَا إنْ تعـافُ الماءَ إلَّا لِيُضْـرَبَا

وقول نهشل بن حَرِّيّ:

أتُـتْـرَكُ عــارضٌ وبنـو عَــدي ... وتَــغْــرَمُ دَارِمٌ وَهُــمُ بَــرَاءُ
كدأبِ الثـور يُضْرَبُ بالهَـرَاوَى ... إذا ما عَافَـتِ الـبَقَـرُ الـظِّمـاءُ

وأما صعود الجبال فلعل ذلك يعود لارتفاع الجبال، فهي أقرب إلى السماء حيث السحاب، على أن للعرب بعض المعتقدات بتأثير الجبال على الإنسان، إذ زعموا أن جبل أبي قبيس يزيل الصداع، وأن جبل خور يعلم الشعر.(٦٥)

وأما اختيار العرب للبقر في هذا العمل الأسطوري، دون سائر الحيوان — مع أنهم أهل إبل وشاء، ولم يكونوا أهل بقر في جملتهم — فلعله جاء بتأثير مباشر من اتصال العرب بمن حولهم من الأمم التي عظمت البقر، وأضفت عليه قدسية وجلالاً لا حدود لهما، فهي عند المصريين والكنعانيين والهنود والمجوس وبني إسرائيل تحظى بمنزلة لم يحظ بها حيوان آخر. ففي مصر القـديمـة يرمز إلى الكون كله ببقرة تطلع من بطنها النجوم،(٦٦) وكان للمعبودين المصريين سرابيس، وهو اسم مركب من اسمي (أوزيريس وأبيس)، كان لهما معبد تدفن فيه العجول التي تعبد باسم أبيس بعد موتها وذهابها إلى مغرب أوزيريس.(٦٧) وإله الشمس (رع) عند المصريين هو الذي امتطى ظهر البقرة السماوية فصارت إلى السماء،

(٦٣) ابن طباطبا، *عيار الشعر*، ص ٦٠.
(٦٤) انظر: الجاحظ، *الحيوان*، جـ١، ص ص ١٨، ١٩.
(٦٥) انظر: المعلوف، مقدمة *ديوان عبقر*، ص ١٩.
(٦٦) العقاد، *كتاب (الله)*، ص ٦٦.
(٦٧) العقاد، *كتاب (الله)*، ص ١١٠.

حتى إنه أعرب عن رضاه ورغبته في زراعة الحشائش الخضراء في السماء.[٦٨] والإلهة (نوت) المصرية، التي هي قبة السماء، كانت تصور في هيئة بقرة كاملة، والأم المصرية (نيت) كانت تدعى بالبقرة السماوية، والإلهة (هاتور) كانت تظهر دوما برأس بقرة، والإلهة (إيزيس) إن لم تظهر برأس بقرة ظهرت وعلى رأسها قرنان كبيران.[٦٩] وكانت الآلهة من الحيوان أكثر شيوعًا بين المصريين، وقد عبد المصريون — فيما عبدوا — العجل والبقرة، ولما تحولت الآلهة إلى آدميين ظلت محتفظة بصورتها الحيوانية المزدوجة وبرموزها، فكان (رع) و(أوزير) يرمز لهما بعجل، و(حتحور) أو (هاتور) ببقرة.[٧٠] وكانت هناك حيوانات تعبد على أنها آلهة في ذاتها، ولها معابد خاصة، فمن هذه الحيوانات العجل (منفيس) والعجل (أبيس)، وقد زعموا أن العجل أبيس نشأ من قبضة ثور نزل من السماء في رحم بقرة، حملته ثم وضعته، ولم تلد بعده قط.[٧١]

أما اليونان، فكان الثور عندهم حيوانًا مقدسًا، لقوته وقدرته، وكثيرًا ما كان يوصف بأنه رفيق (لزيوس وديونيسس)، أو صورة لهما تنكرا فيها أو رمزًا لهما، وربما كان إلهًا قبلهما، ولعل (هيرا) ذات العين البقرية كانت هي أيضًا بقرة مقدسة.[٧٢] ونعثر على رأس الثور الوحشي على جدران القصور والمعابد في مدن يونانية كثيرة كدلفى وطيبة، وفي مقدونيا وتراقيا.[٧٣]

أما عند البابليين والكنعانيين، فإن (عشتار) تظهر في رسومهم ومنحوتاتهم وعلى رأسها قرنان، ومن هذه الأعمال ذلك المحفوظ في متحف دمشق الذي يمثل الإلهة عشتار المجنحة، ترضع من ثدييها العاريين إلهين صغيرين، وعلى رأسها تاج يزينه قرنان. والأم الكبرى هي

---

(٦٨) رودلف آنتش، *الأساطير في القاهرة القديمة* (ضمن مجموع أساطير العالم القديم)، ترجمة أحمد يوسف (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٤م)، ص٨٩.

(٦٩) فراس السواح، *لغز عشتار ـ دراسة في نشأة وتطور الأسطورة* (قبرص: سوما للدراسات والنشر، ١٩٨٥م)، ص ص ٧٠، ٧١.

(٧٠) ديورانت، *قصة الحضارة* (*الشرق الأدنى*)، جـ٢، ص ١٥٨.

(٧١) الشهرستاني، *ذيل الملل والنحل*، جـ٢، ص ٨.

(٧٢) ديورانت، *قصة الحضارة*، جـ٦، ص ص ٣٢٤، ٣٢٥.

(٧٣) السواح، *لغز عشتار*، ص ٧٣.

البقرة وهي العجلة، جاء في صلاة سومرية: أيتها البقرة البرية الجموح، أنت أعظم من كبير الآلهة (أن). ونجد الإلهة (عناة) تحمل لقب العجلة، وفي أسطورة من أساطير الكنعانيين يضاجع الإله (بعل) الإلهة (عناة) في صورة بقرة، وتصرح له عناة بعد ذلك أنه قد ولد له ثور بري.(٧٤)

أما تقديس البقرة عند الهنود فأمر لا يحتاج إلى استقصاء ولا إفاضة وهو شائع مشهور، وترى تماثيل الثيرة مصنوعة من كل مادة، وفي شتى الأحجام، تراها في المعابد والمنازل وميادين المدن. وأما البقرة فأحب الكائنات الحية إلى الهنود، ولها الحرية المطلقة في ارتياد الطرقات كيف شاءت، وروثها يستخدم وقودا أو مادة مقدسة يتبركون بها، وبولها خمر مقدس يطهر كل ما في الجسم، وإذا ماتت البقرة وجب دفنها بجلال الطقوس الدينية.(٧٥) وفي الثقافة الهندية كان الثور تجسيدًا لكل من الإله (إندارا) والإله (شيفا). والبقرة من المعبودات الهندية التي لم تضعف قداستها مع كر السنين وتوالي القرون.(٧٦)

أما الفرس، فكان القدماء منهم يعتقدون أن روح العالم مقيمة في ثور يسكن السماء،(٧٧) وعند بعض المجوس أن نعيم الآخرة أن يسقى الأخيار من لبن بقرة مقدسة، درها غذاء الخلود.(٧٨)

أما تقديس البقرة عند بني إسرائيل فأوضح دليل عليه قصة موسى — عليه السلام — مع قومه حين اتخذوا من بعده عجلا جسدا له خوار، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.(٧٩) حيث لم يستطع موسى أن يمنع أتباعه من عبادة العجل

---

(٧٤) السواح، *لغز عشتار*، ص ص ٧١، ٧٢؛ وانظر: صموئيل هنري هووك، *منعطف في المخيلة البشرية - بحث في الأساطير*، ترجمة صبحي حديدي، ط١ (دمشق: دار الحوار، ١٩٨٣م)، ص٧١.

(٧٥) ديورانت، *قصة الحضارة*، جـ٣، م١، ص ٢٠٨.

(٧٦) انظر: السواح، *لغز عشتار*، ص ٧٤؛ وأحمد شلبي، *مقارنة الأديان*، ط٣ (القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٧٢م)، جـ٤، ص ص ٢٩ - ٣٣.

(٧٧) السواح، *لغز عشتار*، ص ٧٤.

(٧٨) العقاد، *كتاب (الله)*، ص ٩٨.

(٧٩) سورة الأعراف، الآية ١٤٨.

الذهبي؛ لأن عبادة العجول كانت لا تزال حية في ذاكرتهم، منذ كانوا في مصر، وظلوا زمنًا طويلاً يتخذون الحيوان آكل العشب رمزا لآلهتهم. وقد بقيت عبادة العجل تتجدد في حياة بني إسرائيل من حين إلى حين. فقد عمل يربعام بن سليمان عجليْ ذهب ليعبدهما أتباعه، حتى لا يحتاجوا إلى الذهاب إلى الهيكل، وقد عبد أهاب، ملك إسرائيل، الأبقار بعد سليمان بقرن واحد.(٨٠) ولعل ذلك راجع إلى ما روي من أن قربان هابيل كان بقرة، أرسل الله نارًا بيضاء فأكلتها، دلالة على قبول القربان.(٨١)

هذا ما وجدته عن نار الاستمطار أو الاستسقاء في آثار العرب وأخبارهم حاولت فيه الربط بين عناصر هذه الطقوس أو الشعائر عندهم وما هو موجود عند الأمم الأخرى. وقد زعم عبدالمعين خان(٨٢) أن نار المزدلفة — وهي من نيران العرب — كان يقصد منها نزول الغيث، ولا أعلم من أين أتى بهذا، ولم أجد من قال به، بل المتفق عليه أن نار المزدلفة من أشهر نيرانهم، وأن قصي بن كلاب هو أول من أوقدها؛ ليراها الحجيج حين يدفعون من عرفات إلى مزدلفة.(٨٣)

نار الحِلْف والهُوْلَة

وكانت العرب محتاجة إلى التحالف والتآزر، تفرضهما عليهم ظروفهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والتحالف إنما هو من الحَلِف والأيمان.(٨٤) وكان المتحالفون على النصرة محتاجين إلى ما يوثق عقودهم، وما يعزز عهودهم، ويضمن مواثيقهم، ولذا كانوا يلجأون لتأكيد ذلك إلى ما كبر في نفوسهم قدره وعظم في قلوبهم شأنه. ومن ذلك النار، قال أبوعبيدة: «كانوا في الجاهلية الأولى إذا تحالفوا وتعاهدوا أوقدوا نارًا، ودنوا منها حتى تكاد تحرقهم، وعدوا منافع النار، ودعوا على ناقض تلك اليمين، والناكث لذلك العهد

---

(٨٠) شلبي، *مقارنة الأديان*، جـ١، ص ص ١٧٧، ١٧٨؛ العقاد، *كتاب (الله)*، ص١١٣.

(٨١) انظر: ابن كثير، *تفسير القرآن العظيم*، جـ٢، ص ص ٤٣، ٤٤.

(٨٢) خان، *الأساطير العربية*، ص ١٣٣.

(٨٣) انظر: ابن حبيب، *المحبر*، ص ص ٢٣٦، ٣١٩؛ العسكري، *الأوائل*، جـ١، ص٦٣؛ النويري، *نهاية الأرب*، جـ١، ص١٠٩؛ الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ٢، ص١٦٢.

(٨٤) ابن منظور، *اللسان* (حلف).

بحرمان تلك المنافع، ويتصايحون عندها: (الدم الدم والهدم الهدم).[٨٥] وقال الجاحظ: «ونار أخرى هي التي توقد عند التحالف، فلا يعقدون حلفهم إلا عندها، فيذكرون عند ذلك منافعها، ويدعون إلى الله عز وجل بالحرمان والمنع من منافعها على الذي ينقض عهد الحلف ويخيس بالعهد، ويقولون في الحلف: الدم الدم والهدم الهدم (يحركون الدال في هذا الموضع) لا يزيده طلوع الشمس إلا شدا وطول الليالي إلا مدا، مابل البحر صوفة، وما أقام رضوى في مكانه — إن كان جبلهم رضوى — وكل قوم يذكرون جبلهم والمشهور من جبالهم، وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم.»[٨٦] وسُمِي قوم من بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان المِحَاش، لأنهم تحالفوا على بني يربوع على النار فسموا المِحَاش، قال النابغة الذبياني يخاطب يزيد بن سنان:

جَمِّع مِحَاشَكَ يا يزيدُ فإنني أعْدَدْتُ يَرْبُوعًا لَكُمْ وتميما[٨٧]

قال ابن الأعرابي، في قوله جمع محاشك: «سبهم فصيرهم كالشيء الذي أحرقته النار، يقال محشته النار وأمحشته، أي أحرقته، قال: وكانوا يوقدون نارًا لدى الحلف، ليكون أوكد.»[٨٨]

وربما طرحوا في هذه النار كبريتًا أو ملحًا يفرقع، يهولون بذلك، تأكيدًا للحلف.[٨٩] وكذلك يهولون في الجاهلية إذا ما أرادوا أن يستحلفوا رجلاً، إذ كانوا يوقدون نارًا ويلقون فيها ملحًا، وكان في الجاهلية لكل قوم نار، وعليها سدنة، فكان إذا وقع بين الرجلين خصومة جاءوا إلى النار فيحلف عندها، وكان السدنة يطرحون فيها ملحًا من حيث لا

---

(٨٥) أبو إسحق، إبراهيم بن عبدالله النجيرمي، *أيمان العرب في الجاهلية*، تحقيق محب الدين الخطيب، ط٢ (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٨٢هـ)، ص٣٤.

(٨٦) الجاحظ، *الحيوان*، جـ٤، ص ص ٤٧٠، ٤٧١؛ وانظر في هذه النار أيضًا: الثعالبي، *ثمار القلوب*، ص٥٧٧؛ العسكري، *الأوائل*، جـ١، ص٦٤؛ الأندلسي، *نشوة الطرب*، جـ٢، ص٧٩٩.

(٨٧) *ديوان النابغة الذبياني*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ص١٠٢.

(٨٨) ابن منظور، *اللسان*، (محش).

(٨٩) ابن منظور، *اللسان*، (نور) و(هول)؛ النويري، *نهاية الأرب*، جـ١، ص١١١.

يشعر، يهولون بها عليه، واسم تلك النار الهُولة بالضم.(٩٠) قال أوس بن حَجَر:

إذا استَقْبَلَتْهُ الشَّمسُ صَدَّ بوجهِهِ كما صَدَّ عن نارِ المُهَوِّلِ حَالِفُ(٩١)

وقال الكُميت بن زيد:

كَهُوْلَةِ ما أوْقَدَ المُحْلِفُونَ للحَالِفَيْنَ ومَا هَوَّلوا(٩٢)

وقال الكُميت أيضًا:

هُمُو خَوَّفُوني بالعَمَى هُوَّةَ الرَّدَى كما شَبَّ نَارَ الحَالِفينَ المَهوَّلُ(٩٣)

وكما كانوا يحلفون عند النار في طقوس أسطورية، لتأكيد معاهداتهم ومعاقداتهم، كانوا يحلفون بالنار، والعرب لا تحلف إلا بما هو عظيم وجليل ومخوف في نفوسهم، قال الشاعر:

حَلَفْتُ بالملحِ والرَّمَادِ وبالنَّارِ وبالله نُسْلِمُ الحَلَقَه
حتى يَظَلَّ الجَوَادُ مُنْعَفِرا ويَخْضِبَ النَّبْلُ غُرَّةَ الدَّرَقَه(٩٤)

وقال الآخر:

حَلَفْتُ لهم بِالمِلْحِ، والجَمْعُ شُهَّدٌ وبالنَّارِ واللَّاتِ التي هِيَ أعْظَمُ(٩٥)

---

(٩٠) أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، *المعاني الكبير*، صححه سالم الكرنكوي (بيروت: دار النهضة الحديثة، د.ت.)، جـ١، ص٤٣٤؛ ابن منظور، *اللسان*، (هول).

(٩١) *ديوان أوس بن حجر*، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم (بيروت: دار صادر ودار بيروت، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م)، ص٦٩؛ الجاحظ، *البيان والتبيين*، جـ٣، ص٧؛ ابن قتيبة، *المعاني الكبير*، جـ١، ص٤٣٤؛ العسكري، *الأوائل*، جـ١، ص٦٤؛ الأندلسي، *نشوة الطرب*، جـ٢، ص٨٠٠؛ النويري، *نهاية الأرب*، جـ١، ص١١١؛ وعبدالقادر بن عمر البغدادي، *خزانة الأدب*، تحقيق عبدالسلام هارون (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م)، جـ٧، ص١٥٢.

(٩٢) *شعر الكميت بن زيد*، جمع وتقديم داود سلوم (بغداد: مكتبة الأندلس، ١٩٦٩م)، جـ٢، ص١٤؛ الجاحظ، *الحيوان*، جـ٤، ص٤٧١؛ ابن منظور، *اللسان*، (هول)؛ البغدادي، *الخزانة*، جـ٧، ص١٥٢، النجيرمي، *أيمان العرب*، ص٣٦.

(٩٣) ابن قتيبة، *المعاني الكبير*، جـ١، ص٤٣٤؛ النويري، *نهاية الأرب*، جـ١، ص١١١.

(٩٤) الجاحظ، *البيان والتبيين*، جـ٣، ص٨؛ ابن منظور، *اللسان*، (حلق). وأراد بالحلقة: جماعة القوم. والدرقة: ترس يتخذ من الجلود.

(٩٥) الجاحظ، *البيان والتبيين*، جـ٣، ص ٨.

وربما غمسوا أيديهم في الرماد لتأكيد التزامهم بالعهود، إذ كان من تقاليدهم أن يُحضروا جفنة فيها طيب أو دم أو رماد، فيدخلون فيها أيديهم عند التحالف، ليتم عقدهم عليه، باشتراكهم في شيء واحد.[٩٦] وربما تحاكموا إلى النار فيما اختلفوا فيه من أمرهم. روى ابن إسحق أن تُبّعًا لما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك، فقالوا: حَاكِمْنَا إلى النار، قال: نعم، وكانت باليمن — فيما يزعم أهل اليمن — نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم.[٩٧] ولعل تفسير هذه الأسطورة في نص نجده عند ابن قتيبة، يردّ هذا الصنيع إلى سدنتها والقائمين عليها، وربما توهّم بعضهم، أو أُوْهِمَ، أنه فِعْلُ النار نفسها، قال ابن قتيبة: «وكانت لهم نار يقال إنها كانت بأشراف اليمن، لها سدنة فإذا تفاقم الأمر بين القوم فَحُلِفَ بها انقطع بينهم، وكان اسمها هُوْلة والمَهَوْلَة، وكان سادنها إذا أُتي برجل هيبه من الحلف بها، ولها قيِّم يطرح فيها الملح والكبريت، فإذا وقع فيها استشاطت وتنقضت، فيقول: هذه النار قد تهددتك.»[٩٨]

نار الغدر أو نار العار

إن الجاهليين من العرب في العصر الجاهلي مع ما كانوا عليه من صراعات ومنازعات دائمة، فإنهم كانوا لا يغدرون، وكانت العهود عندهم معظمة محفوظة، والمواثيق مؤكدة محترمة، وقد تقدم شيء من وسائل تأكيد العهود والمواثيق في حياتهم، فقد كانوا يبغضون الغدر ويشنعون على أهله ويشهرون بهم في مجامعهم ومواسمهم، فإذا غدر الرجل منهم بجاره أوقدوا له نارًا بمنى أيام الحج، ثم صاحوا: هذه غدرة فلان.[٩٩] ولعل سر اختيارهم لموضع منى وزمان الحج يعود إلى اجتماع الناس أولاً، ثم إلى قدسية الزمان والمكان ثانيا،

---

(٩٦) ابن منظور، *اللسان*، (غمس).

(٩٧) ابن هشام، *السيرة النبوية*، جـ١، ص ٢٧.

(٩٨) ابن قتيبة، *المعاني الكبير*، جـ١، ص٤٣٤؛ وانظر: البغدادي، *الخزانة*، جـ٧، ص١٥١؛ الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ٢، ص١٦٦. على أن نار التهويل عند الثعالبي في *ثمار القلوب* (ص ٥٧٨) هي التي يهولون بها على السبع إذا خافوه.

(٩٩) البغدادي، *الخزانة*، جـ٧، ص١٥١.

وربما إلى عظمة النار وهولها في نفوسهم ثالثا، وإلا لرفعوا علمًا أو اكتفوا بالصوت المجلجل الذي يقتحم على الناس منازلهم. وقد أشار ابن سعيد إلى أن المغدور به هو الذي يوقد النار أيام الحج على الجبل المطل على منى، ثم يصيحون: هذه غدرة فلان، فيدعو عليه أهل الموسم.(١٠٠) وعند الألوسي: أوقدوا النار بمنى أيام الحج على أحد الأخشبين ثم صاحوا: هذه غدرة فلان، فيحذره الناس.(١٠١) ومن أشعارهم في هذه النار قول امرىء القيس:

أَحَنْظَلُ هـذا ذِكْـرُ مَا قَـدْ فَعَلْتُـمْ ... وأَجْلُـوا لكمْ وَجْهَ الحديثِ بتبيـانِ
سَأُوقِدُ، حتى يَعْلَمَ النَّاسُ غَدْرَكُم ... بِمَشْهُـوْرَةٍ فوق العَـلاءِ بنيرانِ(١٠٢)

وقول الحادرة:

فَسُمَيَّ - وَيْحَكِ - هل سمعتِ بِغَدْرَةٍ ... رُفِـعَ اللِّواءُ لنـا بها في مَجْمَـعِ(١٠٣)

قول زهير بن أبي سلمى:

فَإِنْ تَدَعُـوا السَّواءَ فليس بيني ... وبـينكـم بنـي حصـن بَقَـاءُ
وَيَبْـقَـىٰ بينـنـا قَــذَعٌ وتُـلْفَــوا ... إذًا قـومًــا بأنـفـسهم أسَـاؤوا
وتُـوْقَـدُ نَارُكُـمْ شَـررًا ويُرْفَعْ ... لكـم في كُلِّ مَجْمَعَـةٍ لِـوَاءُ(١٠٤)

وقول صفية بنت عبدالمطلب:

ألَا مَـنْ مُبْـلِـغٌ عنـي قُريشًـا ... فَفِـيْمَ الأمْـرُ فينـا والإِمَــارُ
لنـا الأمـرُ المقــدمُ قَـد عَلِمْتُـمْ ... ولم تُوقَـدْ لنــا بِالغَـدْرِ نَـارُ(١٠٥)

---

(١٠٠) الأندلسي، *نشوة الطرب*، جـ٢، ص ٨٠١.

(١٠١) الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ٢، ص ١٦٢.

(١٠٢) امرؤ القيس، *ديوانه*، ص ٣٩٨.

(١٠٣) *ديوان الحادرة الغطفاني*، تحقيق ناصر الدين الأسد (بيروت: دار صادر، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ص٥١؛ والمفضل بن محمد الضبي، *المفضليات*، تحقيق وشرح أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، ط٦ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ص٤٥.

(١٠٤) *ديوان زهـير بن أبي سلمى بشرح الأعلم الشنتمري*، ط١ (القاهرة: المطبعة الحميدية، ١٣٢٣هـ)، ص٧٧، وسماها الأعلم نار الشهرة.

(١٠٥) أبـو تمام حبيب بن أوس، *ديوان الحماسة*، تحقيق عبدالله عسيلان (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، مطابع دار الهلال، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، جـ٢، ص٤٠١؛ ومحمد بن =

نار المسافر أو نار الطَّرْد

ومن مذاهب العرب أنهم كانوا يوقدون النار للمسافر، أو خلف الزائر الذي لا يحبون رجوعه، ولا يشتهون أوبته، ويقولون في دعائهم: أبعده الله وأسحقه، وأوقد نارًا إثره.(١٠٦) قال الشاعر:

وَجُمَّةِ أقوامٍ حَمَلْتَ ولم تكنْ لِتُوقِدَ نَارًا بعدهم للتَّنَدُّمِ(١٠٧)

وقال بشار:

صَحَوْتَ وأوقدتَ للجَهْلِ نَارا وَرَدَّ عليكَ الصِّبا ما استعارا(١٠٨)

وكانوا إذا خرجوا إلى الأسفار أوقدوا نارًا بينهم وبين المنزل الذي يريدونه، ولم يوقدوها بينهم وبين المنزل الذي خرجوا منه، تفاؤلاً بالرجوع إليه.(١٠٩) وشبيه بهذه النار أو هي إياها نار سماها الجاحظ: نار الخُلَعاء أو الهُرَّاب، واستدل عليها بقول الشاعر:

ونارٍ قُبَيْلَ الصُّبْحِ بادرتُ قَدْحَها حَيَا النَّارِ، قد أوقدتُها للمسافرِ

= إسحق، *السير والمغازي*، تحقيق محمد حميدالله (الرباط: معهد الدراسات والأبحاث، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)، ص١٣٨؛ وتحقيق سهيل زكار، ط٦ (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ص١٥٦؛ الأندلسي، *نشوة الطرب*، جـ٢، ص٨٠١، قالت امرأة من هاشم:

فإن تهلك فلم تقرب عقوقا ولم توقد لنا بالغدر نار

(١٠٦) انظر في هذه النار: الجاحظ، *الحيوان*، جـ٤، ص٤٧٣؛ العسكري، *الأوائل*، جـ١، ص٦٥؛ الثعالبي، *ثمار القلوب*، ص٥٧٧؛ ابن قتيبة، *المعاني الكبير*، جـ١، ص٤٣٤؛ ابن طباطبا، *عيار الشعر*، ص٥٤؛ الأصبهاني، *محاضرات الأدباء*، جـ٣، ص٦٢٣؛ الأندلسي، *نشوة الطرب*، جـ٢، ص٨٠٠؛ النويري، *نهاية الأرب*، جـ١، ص١١٠.

(١٠٧) الثعالبي، *ثمار القلوب*، ص٥٧٧؛ النويري، *نهاية الأرب*، جـ١، ص١١٠؛ ابن قتيبة، *المعاني الكبير*، جـ١، ص٤٣٤. والجُمَّة: الجماعة يمشون في الدم والصلح، يقول: لم تندم على ما أعطيت من الحمالة عند كلام الجماعة، فتوقد خلفهم نارًا كي لا يعودوا.

(١٠٨) بشار بن برد، *ديوانه*، نشره محمد الطاهر بن عاشور، وراجعه محمد شوقي أمين (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٦م)، جـ٤، ص٥١.

(١٠٩) الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ٢، ص ٣٢٤.

وقال الجاحظ في تفسيره: يقول: «بادرت الليل، لأن النار لا ترى بالنهار، كأنه كان خليعا أو مطلوبا.»(١١٠)

وربما أوقدوا نارا — على العكس تماما مما تقدم — هي نار الإياب، وهي النار التي توقد للقادم من السفر سالما غانما، قال عدي بن زيد:

يَا لُبَيْنَى أَوْقِدي النَّارا إنَّ مَنْ تَهْوَيْنَ قد حَارا(١١١)

نار السعالي أو نار الغيلان:

لعل البيئة الجغرافية للجزيرة العربية في كونها صحراء قاحلة ممتدة، لايحد امتدادها إلا الجبال ذات الكهوف والأغوار، ولا يخرق الصمت المطبق في أرجائها إلا حفيف الأشجار وصفير الرياح، وغلبة التوحش على حيوانها، وكون العرب أهل انتقال وترحال، لعل ذلك هو الذي ولّد وحشة ورهبة وحذرًا عند أكثر من يمر بهذه الصحراء، مما يدفعه أحيانًا إلى أن يتوهم مالا وجود له في الحقيقة، ولذا كان حديث العرب عن الجن والسعالي والغيلان في تشكلها وتلونها وملابستها للإنس أكثر من حديث معظم الأمم، وفي هذا الحديث ما هو حقيقة، وفيه ما هو وهم شكّله خيال الخائف الوجل المترقب، وربما كان هذا كله مصدر الموروث العربي الأسطوري عن الغول والسعلاة.

وقد فرّق الجاحظ بين السعالي والغيلان، فذهب إلى أن الغول «اسم لكل شيء من الجن يعرض للسُّفَّار، يتكون في ضروب الصور والثياب، ذكرًا كان أو أنثى، إلا أن أكثر كلامهم على أنه أنثى... والسعلاة اسم الواحدة من نساء الجن إذا لم تتغول لتفتن السُّفَّار.»(١١٢) على أن بعض اللغويين يجعلهما نوعًا واحدًا، وقد فرّق الجاحظ بين نار

---

(١١٠) الجاحظ، *الحيوان*، جـ٤، ص ٤٨٩؛ والبيت في ابن منظور، *اللسان*، (حيا)، وقال في تفسيره: قوله حيا النار: أراد حياة النار، فحذف الهاء.

(١١١) الأندلسي، *نشوة الطرب*، جـ٢، ص ٨٠٠؛ النويري، *نهاية الأرب*، جـ١، ص١١١، (وسماها النويري: نار السلامة)، وفي الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ٢، ص١٦٣. والرواية في *نهاية الأرب*: «قد زرا.»

(١١٢) الجاحظ، *الحيوان*، جـ٦، ص ص ١٥٨، ١٥٩؛ وذكر بعض الأشعار التي قيلت في تلون الغول ونكاح الإنس للسعالي.

السعالي ونار الغيلان، للفرق الذي سقناه عنده آنفا، فقال: «ونار أخرى التي يحكونها من نيران السعالي والجن، وهي غير نار الغيلان.»[١١٣] وقال عن نار الغول: «ونار أخرى، وهي النار التي تذكر الأعراب أن الغول توقدها بالليل، للعبث والتخييل وإضلال السابلة،» قال أبو المطراب عبيد بن أيوب العنبري:

فَللَّه دَرُّ الـغُـول أيُّ رَفِـيْقَـةٍ لصـاحـب قَفْـرٍ خَائِـف مُتَـقَـفِّـر
أرَنَّـتْ بِلَحْـنٍ بعـد لحنٍ وَأوْقَـدَت حَوَالَيَّ نِيرانًـا تَبُـوْخُ وَتَـزْهَـرُ[١١٤]

على أن أبا هلال العسكري،[١١٥] والبغدادي،[١١٦] والألوسي[١١٧] ساقوا بيتَيْ عبيد بن أيوب بعد ذكرهم نار السعالي، وأنها شيء يقع للمتغرب والمتقفر. ومن أوهامهم وأساطيرهم أن من علق على نفسه كعب أرنب لم تقر به جِنَّان الحي، وعُمَّار الدار، وشياطين الحَمَاطَة، وجَانُّ العُشَرة، وغول القفر وكل الخوافي، وتطفأ عنه نيران السعالي.[١١٨] على أن الشارع الحكيم قد أرشد إلى ما هو خير، فقد روى جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: إذا تغولت لكم الغيلان فنادوا بالأذان، وإياكم والصلاة على جواد الطريق. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: إذا تغولت الغيلان فليؤذن، فإن ذلك لا يضره.[١١٩]

---

(١١٣) الجاحظ، *الحيوان*، جـ٤، ص ٤٨١.

(١١٤) الجاحظ، *الحيوان*، جـ٥، ص ١٢٣؛ الأصبهاني، *محاضرات الأدباء*، جـ٣، ص٦٢٥، ونسب الشعر لعبيد بن الأبرص، وهو وهم، وعبيد بن أيوب العنبري شاعر أعرابي كان جوالا في مجهول الأرض، يركب القفر والمجاهل، وكان يذكر في شعره أنه يرافق السعالي والغيلان ويبايت الذئاب والأفاعي، ويؤاكل الظباء والوحش؛ انظر: الجاحظ، *الحيوان*، جـ٦، ص١٦٥؛ ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، ص ٧٥٨.

(١١٥) العسكري، *الأوائل*، جـ١، ص ٦٧.

(١١٦) البغدادي، *الخزانة*، جـ٧، ص ١٤٩.

(١١٧) الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ٢، ص ١٦٥. وفي قولهم: شيء يقع للمتغرب، دلالة على أنها نار متخيلة لا حقيقة لها.

(١١٨) انظر: ابن طباطبا، *عيار الشعر*، ص ص ٦٤، ٦٥؛ النويري، *نهاية الأرب*، جـ٣، ص١٢٤. والحماطة والعشرة: نوعان من الشجر.

(١١٩) حديث النبي ﷺ في *مسند الإمام أحمد بن حنبل* (بيروت: المكتب الإسلامي ودار صادر، د.ت.)، جـ٣، ص٣٠٥. والأثر المروي عن عمر بن الخطاب في الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ٢، ص ٣٤٨.

وتزعم العرب أن الرجل إذا تفرد في الصحراء ظهرت له في خلقة الإنسان، فلا يزال يتبعها حتى يضل عن الطريق، فتدنو منه، وتتمثل له في صور مختلفة، فتهلكه روعا، وقالوا: إذا أرادت أن تضل إنسانا أوقدت له نارًا، فيقصدها فتفعل به ذلك.[١٢٠]

نار الحرب أو نار الأُهْبُة

أما من سمّىٰ هذه النار بنار الأُهْبة فقد نص على أن العرب كانوا إذا أرادوا حربًا أو توقعوا جيشا، وأرادوا الاجتماع، أوقدوا ليلاً على جبل، فتجتمع إليهم عشائرهم، فإذا جَدُّوا وأعجلوا أوقدوا نارين، قال الفرزدق:

ضَرَبُوا الصَّنَائِعَ والملوك وأوْقَدوا نَارَيْنِ أشْرَفَتَا على النِّيْرَانِ[١٢١]

وسماها الثعالبي (نار الإنذار)، واستشهد عليها بقول عمرو بن كلثوم:

ونحنُ غَدَاةَ أُوْقِدَ في خَزَازَىٰ رَفَدْنَا فوقَ رِفْدِ الرَّافِدِيْنَا

ثم أعقب ذلك بنار سماها (نار الاستكثار)، وقال في شأنها: «كانوا إذا نزلوا منزلاً وهم جيش يريدون محاربة قوم، استكثروا من النيران، وأكثروا من الذبح، مخافة أن يحزرهم حازر بقلة ذبحهم ونيرانهم، فيستدل على العورة منهم.»[١٢٢] على أن الثعالبي حين جاء إلى ذكر نار الحرب قال: «هي على طريق المثل والاستعارة لا على الحقيقة، كما قال جل ذكره: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾.»[١٢٣]

أما الجاحظ، فسمّى النارين باسم نار الحرب، وقال في الأولى: «ونار أخرى وهي النار التي كانوا إذا أرادوا حربًا، وتوقعوا جيشا عظيما، وأرادوا الاجتماع، أوقدوا ليلاً على جبلهم نارًا، ليبلغ الخبر أصحابهم، وإذا جدوا في جمع عشائرهم إليهم أوقدوا نارين.»[١٢٤]

---

(١٢٠) الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ٢، ص ٣٤٨.

(١٢١) انظر: ابن قتيبة، *المعاني الكبير*، جـ١، ص٤٣٤؛ الأصبهاني، *محاضرات الأدباء*، جـ٣، ص٦٢٤؛ البغدادي، *الخزانة*، جـ٧، ص١٥٢؛ الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ٢، ص ص ١٦٣، ١٦٧.

(١٢٢) الثعالبي، *ثمار القلوب*، ص ٥٧٩.

(١٢٣) الثعالبي، *ثمار القلوب*، ص ٥٧٦؛ سورة المائدة، الآية ٦٤.

(١٢٤) الجاحظ، *الحيوان*، جـ٤، ص ص ٤٧٤، ٤٧٥.

ثم ساق بيتيْ عمرو بن كلثوم والفرزدق المتقدمين. ثم قال في موضع آخر تحت عنوان (نار الحرب): «ويذكرون نارًا أخرى وهي على طريق المثل لا على طريق الحقيقة،»[١٢٥] وعند أبي هلال العسكري: «ونار الحرب مثل وليس بحقيقة.»[١٢٦] وفي أمهات كتب التفسير حُملت نار الحرب في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ على الاستعارة لا على الحقيقة،[١٢٧] غير أن أبا حيان النحوي يشير إلى أن قومًا قالوا: هو على حقيقته، وليس استعارة، وهو أن العرب كانت تتواعد للقتال، وعلامتهم إيقاد نار على جبل أو ربوة، فيتبادرون والجيش يسري ليلاً، فيوقد من مر بهم ليلاً النار، فيكون إنذارا... وقيل إذا تراءى الجمعان وتنازل العسكر أوقدوا بالليل نارا، مخافة البَيَات، فهذا أصل نار الحرب، وقيل: كانوا إذا تحالفوا على الجد في حربهم أوقدوا نارًا وتحالفوا.[١٢٨] ونص النويري على حقيقة نار الحرب، فقال: «نار الحرب، وتُسمَّى نار الأهبة والإنذار، توقد على يفاع، فتكون إعلامًا لمن بَعُد،» قال ابن الرومي:

لَهُ نَارَانِ نَارُ قِرًى وحَـرْبٍ تَرى كلتيهـما ذاتَ التهاب[١٢٩]

ثم إن النويري عدّد النيران المجازية عند العرب، ولم يذكر نار الحرب معها.[١٣٠]

قلت: والذي أرجّحه أن الأصل في نار الحرب الحقيقة، ولا مانع من أن تحمل على سبيل المجاز والمثل في مواضع، والشواهد على ما أرجحه كثيرة، فبالإضافة إلى ما تقدم، جاء عند الميداني في تفسير قولهم (نار الحرب أسعر): «كانت العرب إذا أرادت حربًا أوقدت نارًا لتصير إعلاما للناهضين فيها، قال الله، عز وجل: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾،»[١٣١] وفي *النقائض*: «وأما ابن مزيقياء الغساني فإنه أقبل حتى أغار على بني ضبة،

---

(١٢٥) الجاحظ، *الحيوان*، جـ٥، ص ١٣٣.

(١٢٦) العسكري، *الأوائل*، جـ١، ص ٧١.

(١٢٧) انظر الهامش رقم ٢.

(١٢٨) أثير الدين أبو حيان الأندلسي، *البحر المحيط*، ط٢ (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، جـ٣، ص ص ٢٢٥، ٢٢٦.

(١٢٩) النويري، *نهاية الأرب*، جـ١، ص ١١١.

(١٣٠) النويري، *نهاية الأرب*، جـ١، ص ١١٤.

(١٣١) أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، *مجمع الأمثال*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، د.ت.)، جـ٣، ص٣٩٥.

وقد كانوا أوقدوا مع جروة وشقرة ابني ربيعة بن ثعلبة بن سعد بن ضبّة نارًا للحرب، فقال الملك: ما هذه النار التي تدخن علينا؟ قالوا: هذه جروة وشقرة قد أوقدوا نارًا للحرب.»[١٣٢] وفي *النقائض* أيضًا: «وكان كليب بعث في ربيعة يجمعهم، ثم بعث على مقدمته السفاح التغلبي، وأمره أن يوقد على خزازى، ليهتدوا بناره، وقال له: إن غشيك العدو فارفع نارين.»[١٣٣] وذكر الجاحظ أنهم «كانوا إذا أجمعوا للحرب دخنوا بالنهار وأوقدوا بالليل،» قال خمام السدوسي:

وَإِنَّا بالصُّلَيْبِ ببطنِ فَجٍّ جميعًا واضعين بها لظانا
نُدخن بالنهار لِيُبْصِرُونا ولا نَخْفَىٰ على أحَدٍ أتَانَا[١٣٤]

وعن أبي عمرو بن العلاء: «كان أول يوم امتنعت معد عن الملوك، ملوك حمير، وكانت نزار لم تكثر بعد، فأوقدوا نارًا على خزاز ثلاث ليال، ودخّنوا ثلاثة أيام، ولولا قول عمرو بن كلثوم ما عُرف ذلك اليوم حيث يقول:

ونَحْنُ غَدَاةَ أوْقِدَ في خَزَازَى رَفَدْنَا فوقَ رِفْدِ الرَّافِدِيْنَا[١٣٥]

قلت: وكيف يخفى على أبي عمرو قول زهير بن جناب:

شَهِدْتُ المُوْقِدِيْنَ على خَزَازَى وبالسُّلاَّنِ جَمْعًا ذا زَهَاءِ[١٣٦]

ولما نزل رسول الله ﷺ، مَرَّ الظَّهْرَان، في غزوة الفتح، وأبوسفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الخبر عن رسول الله، فسمع العباس بن عبدالمطلب أبا سفيان

---

(١٣٢) أبوعبيدة معمر بن المثنى، *النقائض*، نشره أنتوني بيفان (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨م)، جـ١، ص١٩٦.

(١٣٣) أبو عبيدة، *النقائض*، جـ٢، ص ١٠٩٤.

(١٣٤) الجاحظ، *البيان والتبيين*، جـ٣، ص ص ٢٢، ٢٣؛ والبيتان في *ديوان الأعشى*، شرح وتعليق محمد محمد حسين (القاهرة: مكتبة الآداب، المطبعة النموذجية، ١٩٥٠م)، ص ١٨٧.

(١٣٥) ابن عبد ربه الأندلسي، *العقد الفريد*، تحقيق محمد سعيد العريان (بيروت: دار الفكر، د.ت.)، جـ٦، ص٨٤؛ وأبوعبيد البكري، معجم *ما استعجم*، (خزاز)، خزاز: جبل أحمر لغنيّ.

(١٣٦) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، *كتاب الأغاني* (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت.)، جـ١٩، ص٢٣؛ الميداني، *مجمع الأمثال*، جـ٤، ص١٩.

يقول: والله ما رأيت كالليلة قَطُّ نيرانا، فقال بديل بن ورقاء: «هذه نيران خزاعة حمشتها الحرب.»[١٣٧] وترجم المرزباني لمعقل بن عامر بن نمير الأسدي، فقال: «وعامر لقبه المُوْقِد، وكان رئيس بني أسد في بعض حروبهم، فأوقد لهم نارًا، فَسُمِّيَ المُوْقِد.»[١٣٨] وكان الذي يوقد نار الحرب يعرف بالرائد، قال الخصفي المحاربي:

أولئك قومي إنْ يَلُذْ ببيوتِهِمْ أخُو حَدَثٍ يومًا فَلَنْ يُتَهَضَّمَا
وَكَمْ فِيهِمُ مِنْ سَيِّدٍ ذي مَهَابَةٍ يُهَابُ إذا ما رَائِدُ الحَرْبِ أضْرَمَا[١٣٩]

وكانوا يوقدون نار الحرب على جبل أو يفاع من الأرض ليكون ذلك أظهر لها، ولتراها عشائرهم وحلفاؤهم فيجتمعوا لها، قال عوف بن عطية التيمي:

إذَا مَا اجْتَبَيْنَا جَبَى مَنْهَلٍ شَبَبْنَا لحربٍ بِعَلْيَاءَ نَارا[١٤٠]

وقال الشمردل:

أنَاخُوا فَصَالُوا بالسيوفِ وأوقَدُوا بعلياءَ نَارَ الحربِ حتى تَأَجَّجَا[١٤١]

وقال زهير بن جناب:

وَلَقَدْ شَهِدْتُ النَّارَ للأسْلاَفِ تُوْقَدُ في طُمَيَّة[١٤٢]

وقال تأبط شرا:

وَهُمْ أسْلَموكم يَوْمَ نَعْفِ مُرَامرٍ وقد شَمَّرتْ عن ساقها جَمْرَةُ الحرب
بَصُرتُ بنارٍ شِمْتُها حين أوْقِدَتْ تلُوْحُ لنا بين الرُّتَيْلَةِ فالهَضْبِ[١٤٣]

---

(١٣٧) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٦، ص ٣٥٢.

(١٣٨) أبوعبيد الله محمد بن عمران المرزباني، معجم *الشعراء*، نشر بعناية كرنكو، ط١ (القاهرة: مكتبة القدسي، ١٣٥٤هـ)، ص٣٧١.

(١٣٩) الضبي، *المفضليات*، ص ٣٢٠.

(١٤٠) الضبي، *المفضليات*، ص ٤١٥.

(١٤١) البغدادي، *الخزانة*، جـ٩، ص٩٧.

(١٤٢) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١٩، ص٢٢. وطمية: جبل في طريق مكة. انظر: ياقوت الحموي، معجم *البلدان* (بيروت: دار صادر ودار بيروت، ١٣٧٤هـ - ١٣٧٦هـ)، (طمية). ورواية البيت فيه: ولقد شهدت النار بالأنفار توقد في طميه.

(١٤٣) تأبط شرا، ثابت بن جابر، *ديوانه*، جمع وتحقيق علي ذو الفقار شاكر، ط١ (بيروت: دار الغرب =

ومن الشعر الذي جاء فيه ذكر نار الحرب، وحملها فيه على الحقيقة أولى وأرجح، قول دريد بن الصمة يمدح عبدالله بن جدعان التيمي :

وَجَلْدًا إذا الحرب مَرَّتْ به   يُعِينُ عليها بِجَزْلِ الحَطَبْ(١٤٤)

وقول عبدالرحمن بن دارة الغطفاني :

فلا سِلْمَ حتَّى تُنْحَطَ الخيلُ بالقَنَا   وتُوْقَدَ نَارُ الحربِ بالحطب الجزلِ(١٤٥)

وقول زهير بن أبي سلمى :

إذا لَقِحَتْ حَرْبٌ عَوَانٌ مُضِرَّةٌ   ضَرُوس تَهُرُّ النَّاسَ، أنيابُها عُصْلُ
قُضَاعِيَّةٌ أو أختها مُضَرِية   يُحَرَّقُ في حَافَاتِها الحَطَبُ الجزلُ(١٤٦)

وقول الأعشى :

ولـه المُقْدَمُ في الحَرب إذا   سَاعَةُ الشِّدْق عن النَّاب كَلَحْ
أيَّ نارِ الحَرْبِ لا أوْقَدَهَا   حَطَبًا جزلًا فأوْرَى وَقَدَحْ(١٤٧)

وقول الأفوه الأودي :

كشهابِ القَذْفِ يَرْمِيْكُم بِهِ   فارسٌ في كَفِّهِ للحرب نارُ(١٤٨)

ولهذه الأبيات أشباه ونظائر.(١٤٩)

= الإسلامي، ١٩٨٤م)، ص ص ٦٦، ٦٧.

(١٤٤) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١٠، ص ٢١.

(١٤٥) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٢١، ص ٢٤٦.

(١٤٦) زهير بين أبي سلمى، *ديوانه بشرح الأعلم*، ص ١٩.

(١٤٧) الأعشى، *ديوانه*، ص ٢٤١.

(١٤٨) الجاحظ، *الحيوان*، جـ٦، ص ٢٧٥.

(١٤٩) انظر: الضبي، *المفضليات*، ص ص ٥٩، ٣٣٣، ٣٤١، ٣٦٤؛ وعبدالملك بن قريب الأصمعي، *الأصمعيات*، تحقيق وشرح أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، ط٥ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ص ص ٢٠٧، ٢١٦؛ أبو عبيدة، *النقائض*، جـ١، ص ص ١٠٦، ١٤٦، ١٤٨، ٢٦٦، ٢٦٧، ٤٨١، ٥٢٤، ٥٣٨؛ جـ٢، ص٨٥٤؛ الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٤، ص٢١١؛ جـ٦، ص٣٩؛ جـ٧، ص١٣٥؛ جـ٨، ص٩١؛ جـ١١، ص ص ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٨٣؛ جـ١٤، ص١٥؛ جـ١٥، ص٩١؛ جـ١٨، ص٨١؛ جـ٢٤، ص٣٣؛ المرزباني، *معجم الشعراء*، ص٢٥٩؛ وأبوالقاسم الحسن بن بشر الآمدي، *المؤتلف* =

نار القِرى أو نار الأضياف

وهي من مفاخر العرب ومن مآثرهم، في جاهليتهم وإسلامهم، ولم تذكر في آثارهم نار تضاهي هذه النار في باب الفخر والمديح، وربما تجاوز ذكرهم لهذه النار واحتفاؤهم بها حدود الوقائع إلى ما يشبه الخرافات والأساطير، لأن العرب تعظم الكرماء وتكبر الأجواد الأسخياء، ولعل الجود والكرم أسمى الخصال منزلة، وأرفعها شأنا، وكان لظروفهم الاجتماعية والاقتصادية أكبر الأثر في ذلك، فالفقراء والمحتاجون إلى الطعام والرفد أكثر من ذوي الغنى وأرباب الثراء، قال الجاحظ في شأن هذه النار: «وهي مذكورة على الحقيقة لا على المثال، وهي من أعظم مفاخر العرب، وهي النار التي ترفع للسَّفْر ولمن يلتمس القِرى.»(١٥٠) وقال النويري: «وهي من أعظم مفاخر العرب، كانوا يوقدونها في ليالي الشتاء، ويرفعونها لمن يلتمس القرى، فكلما كانت أضخم، وموضعها أرفع، كان أفخر، وهم يتمادحون بها.»(١٥١) ومن مشهور شعر مهلهل في رثاء أخيه كليب:

أُنْبِئْتُ أنَّ النَّارَ بعدكَ أُوْقِدَتْ ... واسْتَبَّ بعدك يا كُليبُ المجْلِسُ

وكان كليب، لعظمته، لا توقد نار في حيه غير ناره، ولا يتكلم بمحضره لمهابته.»(١٥٢)

وكان العرب يوقدون نيرانهم على الجبال والأعلام واليفاع من الأرض، ليراها الضيفان من بُعد، فيؤموها، وهذا عندهم مبلغ الكرم وغاية الجود، ولعل من أشهر الشعر وأذيعه في هذا المقام قول الأعشى:

= *والمختلف*، ملحق بمعجم *الشعراء*، تصحيح وتعليق كرنكو، ط١ (القاهرة: مكتبة القدسي، ١٣٥٤هـ)، ص ص ٨٧، ٩٧، ١٣٥، ١٥٣، ١٦٨، ١٨٤، ١٨٦؛ ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، جـ٦، ص ص ١٦، ١٧، ١٩؛ الميداني، *مجمع الأمثال*، جـ١، ص ص ٦٦، ١٢٥؛ جـ٢، ص ص ٥١٢، ٥١٣؛ جـ٣، ص٢٥٨؛ البغدادي، *الخزانة*، جـ٢، ص٢٥؛ جـ١٠، ص٢١٧؛ ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، جـ١، ص ص ٣٧٣، ٥٤٢؛ جـ٢، ص ٧٤٧.

(١٥٠) الجاحظ، *الحيوان*، جـ٥، ص١٣٤، وانظر: الثعالبي، *ثمار القلوب*، ص٥٧٥؛ العسكري، *الأوائل*، جـ١، ص٧٠؛ الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ٢، ص١٦١.

(١٥١) النويري، *نهاية الأرب*، جـ١، ص ١١٣.

(١٥٢) الأندلسي، *نشوة الطرب*، جـ٢، ص ٦٤٣.

لَعَمْـري لقد لاَحَتْ عُيـونٌ كثيـرةٌ ... إلى ضَـوْءِ نَارٍ بالـيَفَـاعِ تَحَـرَّقُ
تُشَـبُّ لمقــرورَيْن يصــطليانهــا ... وبَاتَ على النَّارِ النَّدَىٰ والمُحَلِّقُ(١٥٣)

ونحوهما قول عباءة بن جعشم :

فَبَاتَـتْ على عليـاءَ نارُ ابن جُعْشُمٍ ... تُشَـبُّ لغَـوْرِي وآخـر مُنْـجِـدِ
وبـات النـدى والجـودُ يصطليانهـا ... حَلِيْفَى كريمٍ واجدٍ غيرِ مُجْحِدِ(١٥٤)

ومن الشواهد أيضا على هذه النار المرفوعة لطالبي القِرى قول عمرو بن الأهتم :

وليلةٍ يَصْـطَلي بالفَـرْثِ جَازِرُهَـا ... يختص بالنَّقَـرىٰ المثـرين داعيهـا
لا ينبحُ الكَلبُ فيهـا غيرَ واحـدةٍ ... مـن العِشَـاءِ ولا تَسْـرى أفـاعيهَـا
رفعـتُ نـاري عَلَى عليـاءَ مُشْرِفَـةٍ ... يُدْعَى بها للقِـرَىٰ والحقِ سَارِيْهَا(١٥٥)

وقول حاتم الطائي :

ولـكـن بهـذاك اليفـاع فأوقــدي ... بجـزلٍ ولا تستوقدي بِضِـرَام (١٥٦)

وقوله أيضًا، وقد أمر غلامه أن يوقد نارًا، لينظر إليها من ضل الطريق فيصمد نحوه :

أوْقِـدْ، فإنَّ الـلَّيل لَيلٌ قَرُّ
والريـح ، يا مُوْقِـدُ، ريحٌ صِـرُّ
عســى يَـرَى نـارَكَ من يَمُــرُّ
إنْ جَلَبَتْ ضَيْفًا فَأنْتَ حُرُّ(١٥٧)

وقال الصلتان الفهمي :

ونُوقدها شَقْرَاء في رَأسِ هَضْبَةٍ ... لِيَعْشُـو إليهـا كُلُّ باغٍ وجَـازِعُ

---

(١٥٣) الأعشى، *ديوانه*، ص ص ٢٢٣ ـ ٢٢٥ .

(١٥٤) المرزباني، *معجم الشعراء*، ص ٣٠٤

(١٥٥) شعـر عمـرو بن *الأهتم*، تحقيق سعـود محمـود عبـدالجـابر، ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤/١٩٨٤م)، ص١٠١. والأبيات برواية مختلفة قليلاً لهبيرة بن أبي وهب في ابن هشام، *السيرة النبوية*، جـ٣، ص ص ١٣٧، ١٣٨ .

(١٥٦) *ديوان حاتم الطائي*، تحقيق مفيد محمد قميحة (جدة: دار المطبوعات الحديثة، ١٤٠٨هـ)، ص٩١.

(١٥٧) الطائي، *ديوانه*، ص ٦١ .

وقال مزرد بن ضرار:

فَأَبْصَرَ نَاري وهي شَقْرَاءُ أَوْقِدَتْ بعلياءَ نشزٍ للعيونِ النواظرِ

وقال سحر العود:

له نار تُشَبُّ على يَفَاعٍ لكل مُرَعْبَلِ الأهْدَابِ بَالِي(١٥٨)

وشبيه بهذا البيت قول أبي زيد الأعرابي الكلابي:

له نَارٌ تُشَبُّ على يَفَاعٍ إذا النيران أُلْبِسَتِ القِنَاعَا(١٥٩)

ولعدي بن خرشة الأوسي قوله:

وَتُوقَدُ باليَفَاعِ ، الليلَ، ناري تُحَشُّ ولا يُحَسُّ لها خُبُوْتُ(١٦٠)

وللحطيئة يمدح الوليد بن عقبة:

إذا حان منه منزل الليل أَوْقَدَتْ لأَخْرَاهُ بالعالي اليَفَاعِ أَوَائِلُه(١٦١)

وله أيضًا قوله:

لَنِعْمَ الحيُّ حيٌّ بني كُليبٍ إذا ما أَوْقَدُوا فوق اليَفَاعِ (١٦٢)

وإذا لم يرفع العربي النار من أول الليل مضرمة فوق علم يراها كل من يطلب القرى ويحتاج إلى الطعام، فإنه على الأقل يرفعها إذا ما أحس من بعيد من يتحسس مضيفا يقريه ويؤويه، ويكون ذلك أحيانًا بالنباح أو العواء من الضيف، لينبه كلاب النازلين، فيستدل على المنزل، فإذا الجواد الكريم يرفع الشعلة ليهتدي بها الضيف فيؤمها عندئذ، وفي أشعارهم ما يدل على هذا ويؤيده، من ذلك قول عوف بن الأحوص:

---

(١٥٨) الأبيات الثلاثة في الجاحظ، *الحيوان*، جـ٥، ص ص ٦٢ ـ ٦٥.

(١٥٩) أبو تمام، *ديوان الحماسة*، جـ٢، ص٢٢٦؛ البغدادي، *الخزانة*، جـ١، ص٢٩٧؛ جـ٦، ص٤٦٧؛ وفي الجاحظ، *الحيوان*، جـ٥، ص١٣٥ بدون نسبة.

(١٦٠) المرزباني، *معجم الشعراء*، ص ٢٥٢.

(١٦١) *ديوان الحطيئة جرول بن أوس*، تحقيق نعمان أمين طه، ط١ (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م)، ص٢٣٩؛ الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٥، ص١٤٨.

(١٦٢) الحطيئة، *ديوانه*، ص ٦٢.

ومُسْتَنْبِحٍ يبغي المَبِيْتَ ودونه ... مِنَ اللَّيلِ بابا ظُلْمَةٍ وسُتُوْرُها
رَفَعْتُ له ناري فلما اهتدى بها ... زَجَرْتُ كلابي أنْ يَهِرَّ عَقُوْرُهَا(١٦٣)

وقول حميد بن الأرقط:

ومُسْتَنْبِحٍ بعد الهدوء وقد جَرَتْ ... له حَرْجَفٌ نَكْبَاءُ والليل عَاتِمُ
رَفَعْتُ له مَخْلُوْطَةً فاهتدى بها ... يُشَبُّ لها ضَوْءٌ من النار جَاحِمُ(١٦٤)

وقول جرير مجيبًا الأعور النبهاني:

وأعْوَرَ من نبهانَ يعوى ودونه ... من الليل بابا ظُلمة وسُتُوْرُ
رفعتُ له مشبوبةً يهتدي بها ... يكاد سَنَاها في الهواءِ يطيرُ(١٦٥)

وكانوا يفاخرون ويمدحون بعلو شعلة نار القرى وارتفاع سناها، ليراها من يطلبه فيهوي إليها، قال عمرو بن عبدالله العجلي:

إذَا أُخْمِدَ النيرانُ مِنْ حَذَرِ القِرَى ... رَأيْتَ سَنَا ناري يُشَبُّ اضْطِرَامُهَا(١٦٦)

وقال أبو النجم العجلي:

لقد عَلِمَتْ عِرْسِي قُلَابَةُ أنني ... طَوِيلٌ سَنَا ناري بعيدٌ خُمودُهَا
إذا حَلَّ ضيفي بالفلاة فلم أجد ... سِوَى مَنْبَتِ الأطناب شُبَّ وَقُوْدُهَا(١٦٧)

وقال عباءة بن جعشم العبسي:

كَأنْ لَمْ يَقُلْ يَومًا يزيدُ بن جُعْشُمٍ ... لنار النَّدى ارفع سناها وأوْقِدِ
وأذْكِ سَنَا نارِ النَّدَى عَلَّ ضوءها ... يجيءُ بِمُقْوٍ أو طَرِيْدٍ مُشَرَّدِ(١٦٨)

---

(١٦٣) المرزباني، معجم *الشعراء*، ص ٢٧٥؛ الضبي، *المفضليات*، ص١٧٦؛ الجاحظ، *الحيوان*، جـ٥، ص١٣٦؛ ونسبها الأصفهاني، صاحب *الأغاني*، جـ١٢، ص٢٧٥، إلى شبيب بن البرصاء.

(١٦٤) أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، *عيون الأخبار* (القاهرة: نشرة القسم الأدبي بدار الكتب القاهرية، ١٣٤٨هـ/١٩٢٨م)، جـ٣، ص٢٦٢.

(١٦٥) الآمدي، *المؤتلف والمختلف*، ص ٣٩.

(١٦٦) المرزباني، معجم *الشعراء*، ص ٢٢٣.

(١٦٧) المرزباني، معجم *الشعراء*، ص ٣١١.

(١٦٨) المرزباني، معجم *الشعراء*، ص ٣٠٤.

وقال الفرزدق:

ولـو كان حيًا مالـكٌ وابـنُ مالـكٍ إذًا أوقـدا نارين يعلو سنـاهمـا(١٦٩)

وأنشد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قول الحطيئة:

مَتَى تأتـهِ تَعْشُـو إلى ضـوء ناره تجدْ خير نارٍ عنـدهـا خَيْرُ مُوْقِدِ

فقال: هذا رسول الله، وفي رواية: كذب، تلك نار موسى.(١٧٠)

ومما يدخل في نار القرى والأضياف النار التي توقد للميسر، حتى إذا ما ظفر أحدهم في الرهان نحر الجزر فأطعم وأكرم، وقد فخر الشعراء ومدحوا بهذه النار، وعدوها من دلائل الجود والسخاء، ومن ذلك قول عبد يغوث الحارثي:

كأنيَّ لـم أركـبْ جـوادا ولـم أقُـلْ لخيليَ كُرِّى نَفِّسِي عن رجـالـيا
ولم أسْـبَـأ الـزِّقَّ الـرَّويَّ ولم أقُـل لأيسار صدق عَظِّموا ضَوْءَ ناريا(١٧١)

وقال النمر بن تولب:

ولـقـد شَهِـدْتُ إذا القِـدَاحُ تَوَحَّـدَتْ وشهـدتُ عنـد الليل مَوْقِـدَ نَارِهَا(١٧٢)

وقال متمم بن نويرة:

أغَـرُّ كَنِصْلِ السيـف يهتز للنـدى إذا لم تجد عند امرىء السوء مَطْعَمَا
إذا اجتـزأ القـومُ القِدَاح وأُوْقِـدَتْ لهم نَارُ أيْسَارٍ كَفَى مَنْ تَضَجَّعَا(١٧٣)

---

(١٦٩) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، *الكامل*، بعناية محمد أبوالفضل إبراهيم (القاهرة: دار نهضة مصر، د.ت.)، جـ١، ص٢٢٠.

(١٧٠) الحـطيئـة، *ديوان الحـطيئة*، ص١٦٣؛ الجاحظ، *الحيوان*، جـ٥، ص١٣٣؛ الثعالبي، *ثمار القلوب*، ص٥٧٥.

(١٧١) أبوعبيدة، *النقائض*، جـ١، ص١٥٤؛ ابن عبدربه، *العقد الفريد*، جـ٦، ص٧٣؛ البغدادي، *الخزانة*، جـ١، ص٣٢٩.

(١٧٢) أبـوبكر الأنباري، شرح *القصائد السبع الطوال الجاهليات*، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٤ (القاهرة: دار المعارف، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص٢٣٠؛ الجاحظ، *الحيوان*، جـ٤، ص٢٤.

(١٧٣) المبرد، *الكامل*، جـ١، ص ١٨٩؛ الضبي، *المفضليات*، ص ٢٦٧.

وقال الفرزدق:

سأرمي، ولو جُعِلَتْ في اللئام وَرُدَّتْ إلى دِقَّةِ المَحْتِدِ
كُليبا فما أوْقَدَتْ نَارَهَا لِقِدْح مُفَاضٍ ولا مِرْفَدِ(١٧٤)

وربما أوقدوا النار بما تطيب رائحته وتشيع من عود أو قرنفل أو مندل وكل ما يتبخر به وتستحسن رائحته، لتهتدي به الضيفان، وخاصة العميان منهم، أو حيث يكون الوقت نهارا، فلا يرى لهب النار وسناها، وقد ذكر الشعراء في أشعارهم هذا على سبيل المدح، وخاصة في مقام ذكر الحبيبة، وكيف اهتدى إليها، ومن ذلك قول الحارث بن حلزة:

وبعينيكَ أوْقَدَتْ هندُ النَّارَ أصيْلاً تُلْوي بها العلياءُ
أوْقَدَتْهَا بين العَقِيْقِ وشَخْصَيْنِ بِعُودٍ، كما يَلُوحُ الضِّياءُ(١٧٥)

وقال كثير عزة:

فَمَا روضةٌ بالحَزْنِ طيبةُ الثَّرى يَمُجُّ النَّدَى جثجاثُها وعَرَارُها
بِمُنْخَرَقٍ مِنْ بَطْنِ واد كَأنَّمَا تلاقتْ به عَطَّارةٌ وتجَارُهَا
بأطيبَ من أردانِ عَزَّةَ مَوْهِنًا وقد أُوْقِدَتْ بالمَنْدَلِ الرَّطْبَ نَارُها(١٧٦)

وقال القتال الكلابي:

وشُبَّتْ لنا نَارٌ لليلى، صَبَاحَه يُذَكَّى بِعُوْدٍ جَمْرُهَا وقَرَنْفُل(١٧٧)

وقال شاعر آخر:

أمِنْ زينبَ ذي النَّارُ قُبيل الصبح ما تخبو
إذا ما خَمَدَتْ يُلْقَى عليها المَنْدَلُ الرَّطْبُ(١٧٨)

---

(١٧٤) أبوعبيدة، *النقائض*، جـ٢، ص ٧٩١. قال في شرحه: يريد أنهم لا يوقدون نارًا لأيسار ولا لضيفان.

(١٧٥) البغدادي، *الخزانة*، جـ٣، ص ٤١٥. وأراد بالعود هنا العود الذي يتبخر به.

(١٧٦) المبرد، الكامل، جـ٣، ص ١١٥. والمندل: عطر ينسب إلى مندل، وهو بلد من بلاد الهند؛ انظر: معجم *البلدان*، «مندل»؛ الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ٢، ص١٦١.

(١٧٧) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٢٤، ص ١٧٩.

(١٧٨) المبرد، *الكامل*، جـ٣، ص ١١٧.

وقال مالك بن الريب:

وَأَبْصَرْتُ نار المازنيات مَوْهِنًا بِعَلْيَاءَ يُثْنَى دونها الطَّرْفُ وَانِيَا
بِعُوْدَى ألنجوج أضَاءَ وَقُودُهَا مهًا في ظلال السِّدْرِ حُورًا جوَازِيا[١٧٩]

وقال عدي بن زيد:

رُبَّ نارٍ بِتُّ أرْمُقُهَا تَقْضِمُ الهِنْدِيَّ والغَارا[١٨٠]

نار الحرتين

قال الإخباريون: ظهرت في حرة بلاد بني عبس نار تسطع ليلاً وتدخن نهارًا، وكانت **قبيلة طيء ترعى إبلها في ضوء هذه النار من مسيرة ثلاث، وربما خرج منها عنق فيسيح مسافة** ثلاثة أو أربعة أميال، لا تمر بشيء إلا أحرقته، فبعث الله خالد بن سنان العبسي، فاحتفر لها بئرًا، ثم أدخلها فيه، والناس ينظرون، ثم اقتحم فيها حتى غيبها، وسمع بعض القوم يقول: هلك الرجل، فقال خالد: كذب ابن راعية المعز، لأخرجن منها وجبيني تندىٰ، فلما حضرته الوفاة قال لقومه: إذا مت ثم دفنتموني، فاحضروني بعد ثلاث، فإنكم ترون عيرا أبتر يطوف بقبري، فإذا رأيتم ذلك فانبشوني فإني أخبركم بما هو كائن إلى يوم القيامة، فاجتمعوا لذلك في اليوم الثالث، فلما رأوا العير وذهبوا ينبشونه، اختلفوا فصاروا فرقتين، وابنه عبدالله في الفرقة التي أبت أن تنبشه، وهو يقول: لا أفعل، إني إذًا أدعى ابن المنبوش.[١٨١] وروي أن ابنته قدمت على النبي ﷺ، فبسط لها رداءه، وقال: هذه ابنة نبي ضيعه قومه، وقيل: إنها سمعت منه سورة (قل هو الله أحد) فقالت: قد كان أبي يتلو هذه

---

(١٧٩) البغدادي، *الخزانة*، جـ٢، ص ٢٠٧. واليلنجوج: شجر طيب الرائحة.

(١٨٠) ابن قتيبة، *المعاني الكبير*، ص ٤٣٦؛ ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، جـ٦، ص ١٨. وأراد بالهندي والغار نوعين من شجر طيب الرائحة.

(١٨١) انظر: الجاحظ، *الحيوان*، جـ٤، ص ص ٤٧٦، ٤٧٧؛ العسكري، *الأوائل*، جـ١، ص٦٦؛ الثعالبي، *ثمار القلوب*، ص٥٧٣؛ النويري، *نهاية الأرب*، جـ١، ص١١٣؛ الأصبهاني، *محاضرات الأدباء*، جـ٣، ص٦٢٤؛ ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ص٢٥١؛ ابن الكلبي، *جمهرة النسب*، ص٤٤٩، وسماها نار الحدثان، ولعله تحريف من النساخ؛ الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ٢، ص ص ١٦٤، ١٦٥.

السورة.[١٨٢] وروي أن نفرًا من بني عبس قدموا على النبي ﷺ، فسألهم عن خالد بن سنان، فقالوا: لا عقب له، فقال: نبي ضيعه قومه.[١٨٣] قال الجاحظ: «والمتكلمون لا يؤمنون بهذا — يعني نبوة خالد — ويزعمون أن خالدًا هذا كان أعرابيًا وبريا... ولم يبعث الله نبيًا قط من الأعراب، ولا من القدادين أهل الوبر، وإنما يبعثهم من أهل القرى.»[١٨٤]

قلت: مع أن خالدًا كان جاهليًا فلعله كان متألهًا متحنفا منصرفًا عن الوثنيات التي كان عليها قومه، كورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعدة، ويمكن حمل ما روي عن النبي ﷺ، في شأنه — إن صح — من أنه نبي ضيعه قومه، على أنه كان غريبًا فيهم، مخالفًا لما هم عليه، كغربة الأنبياء في أقوامهم، قال أبو الطيب المتنبي:

أنَا في أمَّةٍ تَدَارَكَهَا الله غريبٌ كَصَالحٍ في ثَمُوْدِ[١٨٥]

غير أن هذا الذي روي عن النبي ﷺ لم أعثر على وجود له في كتب الأحاديث الصحاح، ولعله من وضع القصاصين والإخباريين، ولو صحت نبوة خالد لذكره النبي في غير حادث عابر كهذا، بل إن نسبة إطفاء النار العظيمة هذه إلى خالد بهذه المعجزة الكبرى يمكن حملها على تلفيق أهل القصص وأصحاب الإسرائيليات، والذي أرجِّحه، أنها انطفأت كباقي نيران حرار العرب، ثم نسب ذلك إليه بهذه التفاصيل، تهويلاً وتعظيمًا. وللعرب حرار معروفة منها: حرة النار لبني سليم، وحرة ليلى، وحرة راجل، وحرة واقم... إلخ.[١٨٦]

---

(١٨٢) انظر: الجاحظ، *الحيوان*، جـ٤، ص ٤٧٧؛ الثعالبي، *ثمار القلوب*، ص٥٧٤؛ وابن حجر العسقلاني، *الإصابة في تمييز الصحابة*، ط١ (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٨هـ)، جـ١، ص٤٦٦؛ وعزالدين بن الأثير، *أسد الغابة* (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٧هـ)، جـ٢، ص٨٤؛ الأصبهاني، *محاضرات الأدباء*، جـ٣، ص٦٢٤؛ *والأعلام* للزركلي، ط٦ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤م)، جـ٢، ص٢٩٦.

(١٨٣) العسقلاني، *الإصابة*، جـ١، ص ٤٦٩.

(١٨٤) الجاحظ، *الحيوان*، جـ٤، ص ٤٧٨، ونقله عنه الثعالبي في *ثمار القلوب*، ص٥٧٤؛ والراغب في *محاضرات الأدباء*، جـ٣، ص٦٢٤.

(١٨٥) أبو الطيب المتنبي، *ديوانه*، بشرح أبي البقاء العكبري، ضبطه وصححه مصطفى السقا، ط٢ (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م)، جـ١، ص٣٢٤.

(١٨٦) اللسان، (حرر).

وبعد، فإن تلك أهم نيران العرب التي رأيت أن أقف عندها، وأن أفصّل القول فيها، لأهميتها عندهم، وظهورها في حياتهم، وحضورها في آثارهم، على أن لهم نيرانًا غيرها هي أقل شأنًا وأهون أمرًا من أن يوقف عندها أو يعنى بها، لأنها كنيران غيرهم، ليس فيها دلالة على خصوصية أو إشارة إلى تفرد أو تميز، كنار الوسم، ونار الصيد، ونار الفداء،(١٨٧) ونار السليم، ونار اليراعة، ونار الحَلْفاء، ونار الغضى، ونار الاصطلاء، ونار العرفج، ونار الحُبَاحِب، ونار الحُمَّى، ونار المعدة، سواء منها ما كان حقيقيًّا أو مجازيًّا.(١٨٨)

(١٨٧) سميت بنار الفداء، لأن ملوكهم كانوا إذا سبوا قبيلة وخرجت إليهم السادات للفداء، كرهوا أن يعرضوا النساء نهارا فيفتضحن، وفي الظلمة فيخفى قدر ما يحبسون لأنفسهم من الصفي، فيوقدون النار لعرضهن، قال الأعشى:

ومنا الذي أعطاه بالجمع ربه على فاقة وللملوك هباتها
نساء بني شيبان يوم أوارة على النار إذ تجلى له فتياتها

انظر: العسكري، *الأوائل*، جـ١، ص٧٢؛ النويري، *نهاية الأرب*، جـ٢، ص١٦٣؛ الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ٢، ص١٦٣.

(١٨٨) انظر في هذه النيران: الجاحظ، *الحيوان*، جـ٤، ص ص ٤٨٣ ـ ٤٩٢؛ جـ٥، ص١٠٧؛ العسكري، *الأوائل*، جـ١، ص ص ٦٧ ـ ٧٣؛ الثعالبي، *ثمار القلوب*، ص ص ٥٧٨ ـ ٥٨٢؛ النويري، *نهاية الأرب*، جـ١، ص ص ١١١ ـ ١١٥؛ الأصبهاني، *محاضرات الأدباء*، جـ٣، ص ص ٦٢٤، ٦٢٥؛ الألوسي، *بلوغ الأرب*، جـ٢، ص ص ١٦٣ ـ ١٦٧.

Arab Fires in the Pre-Islamic Period: Some Mythical Aspects

Abdul Rahman A. Al-Debasi
Assistant Professor, Department of Arabic Language, College of Arts, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. Several attempts have recently been made to explore the field of Pre-Islamic Arab mythology. As far as I know, however, mythology related to fire has never been thoroughly investigated, although it is, as I believe, very significant. The present paper, therefore, will single out for scholarly investigation the mythology of fire among the people of pre-Islamic Arabia. In order to grasp the mythological and ritualistic significance the practices of fire might have had, this study will trace and analyze the cultural and literary heritage related to fire. Given the assumption that these practices could have been the result of foreign influence, the contacts between pre-Islamic Arabs and other cultures (Persian, ancient Egyptian, Indian, Hebraic, and Byzantine) is first briefly dealt with, and the status of fire among these cultures is pointed out. The focal point of the study is thus Arab fires associated with rain, night travel, alliance, betrayal, war, female demons and hospitality. It goes without saying that the study will only investigate the materials that seem to have mythological implications.